إيلياميلين

الوجه الأخر للتمير

إهداء إلى القارىء

ما تظنها أضغاث أحلام هى رؤى حقيقيه من الله عليك فقط الإيمان بها....

يقول القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس للمسلمين أن الله يشق من الأنفس توأمها ..وكل إنسان له نفس منه تسبح فى الدنيا مثله حتى يأتى موعد لقاءها فيلتقيان لا يفترقان أبداً ، لكنى أتسائل أين توأم تلك الأرواح المنتظرة من يحتويها هل هى على الأرض ؟ أم منتظرة عند الله فى السماء؟؟ !! .لا أدرى!! ..لقد تعلمت شيئاً من المسلمين لم أتعلمه فى حياتى الملحدة أو فى ديانتى الكاثوليكية فى الهوية التى قبلت بها من أجل زوجتى العزيزة (أليكس).

هناك أرواح كنسائم طاهرة نفخها الله من روحه فى تلك الأجساد البالة الزائلة فأى قداسة ومكانة لدى الله لهذا الجسد الطينى لينفخ فيه من روحه ! ..وأى معجزة تلك التى تجعل الروح تتجلى من جديد بدون وعاء جسدى يساعدها على الإنتقال بحثاً عن زويها ..لقد أوشكت أن أؤمن بأن زمن المعجزات ليس قاصراً على زمن الأنبياء ولم تقتصر على معجزة عيسى وميلاده من رحم عذراء ،وقدرته فى مداواة المرضى بيديه والتضحية بدمائه ليغفر الذنوب لاتباعه ،لم تعد ترعبنى كلمة كافر التى تنطلق من أفواه المؤمنين لى، فكفرى هو الإيمان الصحيح ،أجل أظن ذلك. فالإيمان الصحيح بالنسبة لى أن أكفر بكل ما لا تراه عينى وأومن فقط بكل ما يشعر به قلبى ،وما أشعر به الآن أن لذلك الكون قوة تفوق عقل الإنسان على استيعاب قدرتها وقوتها مليئه بالعجائب والمعجزات التى تعدها للبشر، قوة بها الرحمة وبها الحق ،آمنت بها بعدما لفَّ الشك خيوطه حول قلبى وأنفاسى وعقلى الذى آمن فقط بالمرئيات ولكن تلك الروح الهائمة الباحثة عن السلام وعن ذويها، لا أظنها خلقت لنفسها أو من نفسها ،فالله مالك الأرض والسماء وما فيها من محسوسات وملموسات ومعلومات ومجهولات كيف لا يرسل الروح بأمره تبحث عن حقها ،تلك الروح التى اجتاحت قلبى الروحى فى إثبات حقها ،تلك الروح وضعت لى أول لبنة فى طريق الإيمان بك يا من آمن به القلب قبل العقل ،ولكن أصريت ألا أؤمن الإيمان المطلق إلا عندما يرى قلبى صدقَ تلك الروح وأنها ليست هلاوس مرض تداعب عقلى من السرطان كما أخبرنى الطبيب أن تلك الأرواح التى أتحدث عنها هى مجرد هلاوس من نشاط الجسم الصنوبرى فى عقلى والذى محتمل أن يكون سبب مرضى لكن لن أستسلم ؛فأنا الآن فى محطتى الأخيرة فى القطار ،الأن أصبحت على بضع خطوات قليلة من الإيمان المطلق أو الجنون المطلق الآن سيدرك العالم أننى كنت أقص عليه قصة خرافية نبعت من عقل كاتبٍ مريضٍ أم معجزة وهبها الله إلى عبده الفقير كما يقول المسلمون ليهديه لطريق الحق

آرت أرثوفيتش

يناير ٢٠١٩

نوفمبر٢٠١٨

وجد نفسه يمضى خلف طيف فتاة شقراء إنسدل شعرها الذهبى الطويل على ظهرها يتطاير مع عدْوِها المرح تلتفت إليه تارة وتعود إلى عدْوِها تارة أخرى مبتسمة ؛فلم يتحقق من ملامح وجهها بدقه ،توقفت الفتاة ومدت يدها له تأخذه معها إلى المعلوم لها والمجهول له ،لا يدرى أين هو ؟ وإلى أين يتجه المسير؟ ، فجأة توقفت الفتاة أمام كوخ بين الغابات وأفلتت يدها وانطلقت كفرس جامح تنظر إليه بطرفها تحثه على اللحاق بها سبقته إلى الكوخ ،ثم دخلت تاركة الباب مفتوحاً جزء منه ،فأسرع إليها متردداً فى البداية ليفتح الباب ، ولكن الشغف بمعرفة ماخلفه وما بداخل الكوخ دفعه لفتحه وما أن فتحه حتى وجد نفسه يفتح باباً على حارة ذات أزقه بالية عفى على جدران منازلها الزمن ،ودُوِّنَ على جدرانها أحداثه، نظر حوله فإذا بأناس يراهم لأول مرة تأمَّل ملابسهم وأحوالهم وألسنتهم التى يتحدثون بها تبدو كعربية لكنها بلكنة مختلفة لا يعلمها جيداً وأزياء تعود إلى منتصف القرن العشرين مما أثار تعجبه!!.

فجأه تسَّمر مكانه عندها تحاشى الاصطدام بهم لكن احدهم قام بالمرور من خلاله وكأنه هواء نافذ! ،أو شبح لا يراه الآخرون ،تعجب فى نفسه ينظر لجسده فيرى ذراعيه وقدميه وباقى جسده بوضوح ورغم ذلك أصبح مخفىٌ لا يُرَى كالأشباح ، رغم أنه يشعر بكل شىء وكأن الزمن جزء منه ،يسمع المتحدثين حوله ويشعر بدفء الجو رغم الغيوم المعتمة التى تخفى أشعة الشمس تارة وتكشفها عنه تارة أخرى ،حاول أن يتذكر آخر شىء قام به مع ذلك الشاب العربى الذى لا يعلم له اسم حتى الآن ؛فتذكر تمدده على الأريكة فى المحاولة الأخيرة للسفر بروحه عبر الزمن ؛ليرى ماذا حل بهذ الشاب!! ولما تهيم روحه فى ثنايا الدنيا دون الإهتداء لمرسى السلام ،فجأه لفت انتباهه من بين المارين رجلٌ ظل واقفاً بمحازاته وكأنه ينتظر منه مرافقته إلى جهته التى يسلكها ،كان رجلاً متوسط القامة يرتدى جلباب رمادى يستند بإحدى ذراعيه على عصا لا تظهر ملامحه بدقه كأنه تعمد إخفائها ،نظر إليه فى تأمل ،وفجأة أصبح السائرون كغمامة تمر بجانبيهما ،حاول السير إليه ولكن الأمر آثار اندهاشه فكلما اقترب منه بخطوة ابتعد الرجل بخطوتين كأنهما قطبى مغناطيس متشابهين يتنافران كلما اقترب أحدهما إلى الآخر.

أسرع الخطى خلف الرجل حتى ركض خلفه ووصل به المستقر إلى محطة القطار فوقف يلتقط أنفاسه المتقطعة مستنداً على ركبتيه التى ألمته كثيراً ،وقف مندهشاً لذلك الزحام الذى اختفى فيه الرجل عن عينيه ولم يعد يراه ،فجأة انطلق صوت القطار خلفه فلتفت وراءه ففوجىء بنفسه يقف على قضيب القطار وما هى إلا لحظات ويصطدم به لم يستطيع التحرك لينقط نفسه فخبَّأ وجهه مرتعباً بين ذراعيه عند اقتراب القطار، وما هى إلا لحظات وتحول الأمر إلى ظلام دامس لا يرى منه شيئاً ظن أنه قد مات ولكنه سمع صوت طائر يصدر من فوقه وكأنه قد حُمِلَ فى جوف ذلك الطائر! ... لا يدرى كيف إلى وأين المستقر؟؟!!

يقال بأن حياتنا ماهى إلا محطات يأخذنا إليها قطار الحياة ،يبدأ أول انطلاق لها منذ اللحظات الأولى التى تخطو فيها ويتلعثم لسانك بالكلمات ثم تتوالى محطات عمرك بسرعة رهيبة وتختلف كل محطة عن الأخرى. فمنها محطة تقف فيها حياتك وتنتهى بها ويحمل عمركَ قطارٌ لأطلالك إلى النهاية ،ومحطات يتوقف فيها عمرك لسنوات ،أومحطة يجبرك قطار عمرك على الرحيل إليها حاملاً ما تبقى منك حيث المحطة الأخيرة ،تلك المحطة التى لا عودة منها فيهجرك ويصبح قطار حياتك كقطار لم يخلق قط ومحطة لم تبنَ بعد!! ، فى إحدى تلك المحطات انتهت حياتى لكن لم تأخذنى إلى المحطة الأخيرة . بل أخذ أطلالى المهمشة إلى محطة افتراضية بين الحياة والموت فصرت فيها كدودة تحفر فى أعماق الأرض عن الحياة لكنها لا تملك الحياة ولم ترتاح من عنائها بالموت ،ولا يعلم بأمرها أحد كأنها منسية أو أنها لم تكن شيئا قط ،وها أنا ذا كتلك الدودة المجهولة أستعد لبدء يوم جديد فى محطتى الإفتراضيه فمع أذان الفجر لففت عمامتى على رأسى وارتديت رداءً صعيدياً فضفاضاً وأتكئ على عصيً ضعيفة تآكلت مع الزمن وحذاء لا تدرى ما كان لونه من قبل، من يرانى يدرك أننى رجل مهاجر عفر وجهه بتراب الزمن أو قد ساقته الأقدار من ادنى مكان بالدنيا لينَقِّب عن رزقه هنا وهناك ،أحمل على كتفى كرتونه بها عسلية ،أبدا يومى بشرب كوب من اليانسون على قهوة المحطة فصوتك لابد أن يكون واضحاً أثناء البيع وإلا لن يفهمك أحد أو يسمع ماذا تبيع ؛فالمسافر لا ينظر لشىء سوى الطريق سارحاً فيه بحياته ،فإن لم يكن لديك صوت يوقظه من أحلام اليقظة أو تفكيره لن يراك أو يشعر بك على الإطلاق ،أبدأ بركوب القطار وأفتح باب الرزق بذكر الله وأسعى بين الركاب داخل عربات القطار ،فمنهم من يكمل نومه فى القطار ومنهم من يعشق أجواء الفجر ونسمات الهواء الباردة النقية المختلطة بأنفاس المصلين فى الفجر وشقشقة العصافير التى تلقى بتحية الصباح على بعضها البعض ،ورويداً رويداً يبدأ بزوغ ضوء النهار الذى يعمُّ الأجواء وعلى الحقول المندثرة على جانبى الطريق و نهر النيل الذى تراه من بعيد شريان رفيع يغذى تلك الحقول الخصبة ... أنادى " عسليه .. عسليه " ،قد يستيقظ البعض منهم حينما أنادى ليلقى نظرة عابرة على هذا البائع الذى أزعج منامه ،والبعض الآخر لا يستيقظ إلا إذا ألقيت بالحلوى فى حِجْرِه فيقبلها ويدفع لك بالجنيهات أو يردها إليك فى استعلاء أو تواضع وهو يشيح بنظره عنك كالذى يخاف من رؤية قبح الدنيا فى ملامحك ،أو تقرأ ما يعانيه فى دنياه فى عينيه ،لكنهم كانوا يغفلون بأمان ،فبائعون القطار بقدر ما يحرصون على بيع سلعهم بقدر ما يخشون على الركاب أن تفوتهم محطات نزولهم ،فمع إقتراب كل محطة كنا ننادى على النائمين بسلعنا فينظر حوله هل وصل أم ليس بعد؟ ،وربما كنت أنا فقط من كان يخاف على المسافر خشية أن تضيع محطته كما أضعتها أنا من قبله وينتهى به الحال إلى جوارى هنا ليكون بائعاً فى القطار ،تنخرط عليه قوانين الباعة وعليه الخضوع لها وقبولها كما تقبلتها أنا من قبله ،وقانوننا هنا ألا يجتمع فى القطار بائعان لنفس السلعة ،ومن يخالف القانون يضرب حتى تكاد لا تحمله قدماه عن الأرض ،ويطرد من المحطة فلا يدخلها كبائع أو حتى مسافر فهذا هو قانون العمل ،أما قانون الحياة هنا لكى تعيش كمن يعيش على هامش الحياه وتجد قوت يومك فهو ألا تحمل فى قلبك ولا على أكتافك هم أكثر من سلعتك.. لا تحفظ وجوه المسافرين أبداً " .

الكل راحل فهناك مسافر يرحل ولا يعود وهناك مسافر قد أكلت محطات القطار راقات من قدميه وحفظ وجهه القطار ببائعيه اعتاد على ركوب نفس المحطه كل يوم فى الصباح يستيقظ على وجهنا ويعود لمنزله بعد العمل ،نقرأ على وجهه ما لقيه فى يومه من شقاء أو راحة ،وهناك قانون محرم كحرمة القتال فى الأشهر الحرم لدى المسلمين ومن يخالفه فقد فجر وهو " ألا تعلق قلبك بأحد المسافرين فى قطار الحياة " ،أو ربما كان ذلك قانونى الخاص.. فلم يعد بهذا القلب مكان لأحد غير الذى فقدتهم فى تلك الحياة ...!!

فمنذ امتهان تلك المهنة أصبحت كالقطار لا أتعلق بأحد وان رحل فأنطلق بسرعة ولا أنتظر أحداً ولا أنظر للخلف أبداً ،وهناك قانون السعى...إن كان قدماك أسرع بين عربات القطار وأقوى فى القفز بين المحطة والقطار المتحرك فستجنى المال أكثر وإن لم تكن بجحاً فى بيع سلعتك فستأكلها لوحدك فى النهايه وتموت جوعاً أيضا ،فنحن نبيع كل ما نملك من سلع لنشترى أنفسنا فقط ولا نتفائل أو نتشائم بيوم أو بوجه ،فقلوبنا كوجه القطار لا تحكم على اليوم من وجه القطار المعدنى فكذلك وجوه البشر لدينا هنا .

كل ما يحيط بالقطار فهو مأوى لنا وفراش لأجسادنا المرهقة وأرواحنا المعافرة على تلك الأرصفة التى تعج بالشحاذين الجالسين يتسولون أن تشترى منهم مناديل أو تلقى فى أيديهم ما ملكت يدك من مال ،فالبعض من الشحاذين لا يجدون مأوى لهم ؛فينامون على الرصيف فى المحطة فهذا منزلهم حافين الأقدام عاريين الجسد والبعض قد تكسوا أجسادهم ثياب رثه خفيفة لا تغنى فى الصيف ولا تشبع فى الشتاء فقد شبع برد الشتاء من أجسادهم واكتفى بترك جلودهم كساء لعظامهم النخرة ،أو يتخذون من أعلى الرصيف سرير صيفى ومن الفجوات أسفل الرصيف بياتاً شتوياً ومن كفوف يديه وساده لينام نوماً عميقاً فى تلك الفجوات بين الرصيف وقضبان القطار!

كنت أتعجب!! كيف لرجل أن يتخذ من هذا الفراغ مأوى؟! ...فعلى الأرجح أنه يربط يداه وقدماه خشية أن حَلِمَ وزدادت أحلامه فتفرد يديه أثناء تقلبه فى نومه لتأتى على القضيب فيأخذها القطار معه فى الطريق ،لكنهم يتفادون تلك المصائب فى بعض الأحيان ويحسبون مواعيد إقلاع القطار حتى ينعموا بالنوم! ، تلك الطبقة من المهمشين أصبحتُ بين ليلة وضحاها جزء منها أحمل فى داخلى همومى وأنطلق فى طريقى لرزقى ،وفى الليل أرقد بجسدى المتهالك فى غرفه تعج برائحه البنزين ونتانه القمامة تكاد تنام فى سكون الليل وكأنك نائم فى الشارع فتلك الغرفه كانت محل من منزل قديم متهالك لم يعد يحتمل تعاقب الزمن عليه ،ليس له صاحب ! ...أعتقد أنه من أملاك اليهود التى قامت الحكومه بتأميمها ونسيانها ،فبنيت فيه جدار وفتحتين إحداهما شباك والآخر باباً ،أنام فيه فأسمع همسات المارين بجوار الجدار كانهم يتهامسون فى أذنك ناهيك عن كائنات الليل التى تعوى وتتشاجرطوال الليل وقد يفوح رائحه البول لإحدى الحيوانات أو لأحد الرجال بجوار الشباك ومنهم من يظن أنه منزل مهجور لا أحد فيه فيلقى بالقمامة ،وما كان منى غير أن أستمر فى تلك الحياة كما تستمر الحياة ،ففى إحدى الليالى الممطرة سمعت بكاء طفل رضيع أيقظنى من النوم فخطر ببالى أنه ربما تركت إحداهن طفلها ،ولكنى وجدته هر صغير قد ضاع من أمه فى القمامة بجوار الشباك أخذته وقمت بتربيته فأصبح مؤنسى فى تلك الحياة الطويلة المملة.. لكنى كنت أحسده لانه وجد من يهتم به ولم أجد من يهتم بى .

إعتقدت أن حياتى ستسير بى على تلك الوتيرة إلى أن تخرج الروح لمولاها ، لكن فى ذلك اليوم قد كسرت إحدى قوانين الباعة ونظرت للخلف وحفظت الوجوه وأخرجت بعض من مكنوناتى المدفونه كالبئر قد فاض من مياهه وأغرق الصحراء العطشة لخصوبتها الماضيه ،عندما حدث شىء عجيب لم أعهده من قبل..شىء يشبه النبوءة ،قبل الفجر بلحظات حين استيقظت من نومى وجدت شيئاً ما يجلس بجوار رأسى ظننت أنه عفريت أو شيئاً ما حاولت النهوض بحذر قرأت المعوذتين واستعذت بالله من الشيطان.. إنقشعت الغيوم عن ضوء القمر لتنعكس على ذلك الشىء ،فإذا به بكروان مليح المنظر،كانت أمى تعشق الكروان وتأخذه كفأل حسن على الرغم من كُرهِنا للكروان فى تلك الآونه لعشق المسلمين له ،كانت تخبرنى أن المسلمين ما أن سمعوا صوت الكروان حتى يوحدون الله..لكنه أتى ،على الرغم أنى لم أرَ كروان طيلة السنوات الماضية وخصوصاً فى تلك الغرفة التى تعجُّ بروائح مختلطة مختلفة.

حلق الكروان فى أرجاء الغرفة والدهشه تملئنى! ..شعرت لوهلة بألفة غريبة لهذا الكروان فسألته بانتظار الإجابه منه

: كيف دخلت إلى هنا واستقر بك التحليق الى موضع قدمى؟!، نظر إلى دون خوف كالذى يفهم كلامى ،حاولت الإقتراب منه لكن فجأة طار خارج الغرفة وقفت أبحث من أين دخل وإلى أين اختفى؟!، فوجدت ثغراً فى الشباك قد خرج منه ،لم أنتبه لهذا الثغر من قبل! من الذى شقه ومتى انشق ؟! ، كدت أن أعود إلى نومى لكن وقع نظرى إلى موضع الكروان فوجدت وردة من بساتين المغرب قد استقرت تحت قدمى فاقتربت منها والرعب تخلل أنفاسى..كيف؟!....كيف جاء بها إلى هنا ومن أين؟! فزهور النَّرْجِسْ المغربية لا تنمو إلا بأرض المغرب البعيد ،كيف لكروان أن يقطع تلك المسافات والبلدان ليأتى إلىَّ بزهرة النَّرْجِسْ البرى الجميله ؟!، ففاضت أحزانى المكبوتة وتلك الذكريات التى تمنيت نسيانها لكنها ذكريات كالدُرَرِ مهما مر الزمن عليها ستظل فى الذاكرة لن تنتهى حتى وإن انتهت الأنفاس فى الصدور،بإشتعال تلك الذكريات بقلبى فاضت عينى بدموع ظننت أنها قد جفت منذ أمد طويل منذ تلك الليله التى تناسيت فيها من أنا وقررت العيش كبائع فى القطار.....

إلتقطت زهرة النَّرْجِسْ ووضعتها فى جيبى فجأه أذن الفجر وحان وقد الإنطلاق ،فى ذلك اليوم كان ينتابنى شعور أن هناك شىء غريب سوف يحدث ولكن متى يحدث فى آواخر خريف العمر؟!، ربما هى هواجس وصدف عابرة ولا داعى أن أتطلع إلى أمل معدوم فى إنتظار معجزة تحدث بعدما مر أكثر من خمسين عاماً فى إنتظارها ! ،راقبت بزوغ الفجر كعادتى لكن اليوم غريب ،الشمس ترسل أشعتها الدافئة لكن قلبى يشعر بالبرد فى ثناياها فارتعش جسدى واقشعرت كل خليه فيه ،تنفست بعمق لكننى احسست كمن لم يتنفس من قبل ، مُلِئَت رئتاى بنسيم يحمل فى طياته رائحة ذكية تأتى من أعماق الحقول المغربية وطيب النفوس المؤمنة تلك الرائحة إشتقت لها من أين تأتى! ربما هو أحد الركاب من المغرب العزيز قد جاء هنا !،نهضت أبحث بأنفى عن مصدرالرائحة ، لم ينتبه أحد فالجميع تقريبا نيام لكنى لم أجد أحداً! ، فمن الذى أتى برائحة المغرب ها هنا ؟ ! من الذى يحمل فى صدره أيامى وسنوات عمرى هنا ؟ ربما لا أحد!! ..وربما قد فاحت رائحه الماضى من صدرى حينما كشف عنها هذا الكروان و تلك الزهرة .

لكن سرعان ما عدت لواقعى الذى أعيش فيه وعملت حتى أنهكنى التعب من السعى بين عربات القطار، أخذت استراحة بجوار باب القطار وضعت بجوارى كرتونة الحلوى التى أبيعها وأرخيت قدماً ورفعت الأخرى وسرحت فى تلك الجنان التى تنبض بالحياة تحت أشعة الشمس قبل غروبها ،فجأة وجدت من اقتحمت مخيلتى التى ترسم ،واستقرت على فخذى فراشة فى غايه الجمال نطق لسانى سبحان من خلقك فاحسن تدبير ألوانك!! ،فمنذ أن اتخذت من القطار ملاذاً لحياتى لم أرَ شيئاً جميلاً كهذا تحدثت معها كمن يتحدث لرفيق له سيرحل بعد لحظات

: ربما جئت تهونين على نفسى ما لقتيه فى تلك الحياه أو ربما أصابك ما أصابنى و تأخذين قسطاً من الراحة من عناء الدنيا مثلى ربما حياتك لا تختلف عن حياتى فشقائك فى الحياه طيرك بجناحين وأنا أسعى بقدمى بين عربات القطار أقتاد الرزق ".. ،دقائق معدودة وعدت إلى عملى مرة أخرى ، فرأيت فتاة صغيرة تجلس بجوار الشباك تستمع بالنظر للطريق ،توقفت أمامها وهى غير منتبه..لقد كنت هنا مثلك من أكثر من خمسين عاماً كنت أتفحص العالم من خارج القطار كمن يشاهد فيلم فى أفخر قاعات السينما بباريس ،كان للحقول والفلاحين والطرق منظر لم آلفه فى حياتى من قبل كنت أستمع لحديث الناس والشغف يملؤ قلبى أن أنطق بكلمه عربية مصرية لكن الحياة أخذتنى على النزول ومكثت هناك، هل تعرفين طريق للرجوع مرة أخرى ؟! أوقفتنى وأنا بجوارها تشترى عسليه تمام كما كنت..رأيت فى عيينيها نفسى وفى تأملها لى شغفى ،وفى ابتسامتها طفولتى المفقود ،وتركت نفسى تعيد الذكريات لكن الفرق بينى وبين تلك الطفلة أننى رحلت فى قطار مجهول وأمضى فى الحياة غريباً ولا أدرى أين المستقر؟! .. مضيت فى طريقى وأنا أعافر أحزانى .

فى المساء عدت منهكا الى غرفتى وضعت رأسى على وسادتى البالية وأغمضت عينى غطت فى ثبات عميق أيقظنى منها صوت جناحين يرفرفان فوق رأسي يصاحبهما صوت الكروان مجدداً إنتفضت جالساً أنظر إليه ،فى تلك اللحظة تذكرت اضطرب قلبى وشعرت بشىء ما لا أدرى ما هو لكنى تذكرت أمى عندما كانت تستمع للكروان فينشرح صدرها وتخبرنى أن رؤيته بالقرب من الإنسان فأل بزوال الهموم والمتاعب وعودة الغائبين وانشراح الصدور من ظلمتها ،ولكنى انتظر الغائب الذى لن يعود ،مدت يدى نحوه فطار فى أرجاء الغرفة حتى استقر فى ركن مظلم بها فجأة ظهر كائن من العدم فتصلبت أوصالى وانتفضت كل خليه فى جسدى خوفا وشعرت أن الدماء قد هربت من أوردتى فابتلعت ريقى واعتدلت فى جلستى متسائلا

:من انت ايها الغريب؟! .سأستعيذ بالرحمن منك كمريم أن ترحل دون أن أؤذيك أو تؤذينى ،إنتظرت منه الجواب لكن جوابه كان الصمت حاولت إستغلال ذلك البصيص من ضوء القمر لأراه بوضوح فبدا لى كرجل أعرفه ..رجلاً رأيته فى مكان ما من قبل لكن أين؟ لا أذكر! ،إقتربت منه رأيت فى عيناه نظرات خوف لا تقل عن الخوف النابض بقلبى وأنفاسى المتلاحقة ،يتأمل وجهى كأنه يبحث فى تجاعيده عن شخصا ما! ..حاولت الإقتراب منه أكثر لكن فجأة إنطلق صوت الكروان مغرداً محلقاً فى الغرفة ، نظرت إليه فى تعجب!! متسائلاً :لما هذا الاندفاع فى صوته وتحليقه؟!

فجأة نظرت إلى ذلك الغريب لكنه إختفى!، وبإختفائه طار الكروان خارجاً من ذلك الثغر، فجأة إنتفضت من مجلسى ، أنظر حولى ماذا حدث أين ذلك الكروان وأين ذلك الغريب الذى جاء معه؟ ! نظرت حولى وتحسست مكان الغريب حيث مكث لكن اتضح أنه حلم!!، حلم غريب أشبه بالواقع حتى أنى لم أشعر بأنه حلم ! شىء لم يحدث لى طيله حياتى! ،تنفست الصعداء وعدت إلى نومى إسترجعت ما حدث لكن أمراً ما شغل تفكيرى عن ذلك الشخص حاولت تجميع ملامحه والبحث عنه فى ذاكرتى العتيقة لعلى أعرف من هو ،لحظات وأذن الفجر ذهبت إلى مسعاى وعقلى مشتت بين ما رأيت هل كانت أضغاث أحلام؟! أم رؤية حقه ؟! كرؤية فرعون مصر ،ما أحوجنى إلى يوسف ليفتينى فى رؤياى .

فى تلك الليلة كانت عيناى متثاقلتين بالنعاس لكنَّ شغفى منعنى من النوم وتلك التساؤلات فى عقلى هل سيظهر هذا الغريب بالكروان مجدداً أم يجب فقط أن أراه فى أحلامى ،فجأة رأيت الكروان يسبح منطلق داخل غرفتى فانتفضت جالساً أترقب مستقره الذى سيظهر بعده ذلك الغريب مجددا فى نفس المكان، سألته

: من أنت أيها الغريب ؟؟ ولماذا ظهرت إلى رجل مثلى ألقى به الزمن فى حجرة مظلمة لا شعاع أمل فيها سوى ضوء القمر الذى أنار غرفتى لأول مرة بوجودك؟ أعفريت أنت أم روح؟! ،إقتربت منه حتى كادت أناملى أن تلمسه فجأة حلق الكروان فوقه واختفى الغريب مجدداً ،تنهدت فى حزن اسال نفسى

: أين ذهب الكروان مع الغريب ؟؟ انا لم أَرَ الكروان يخرج من النافذة كالعادة ،ظننت أننى أحلم أو قد أصابنى هذيان الشيخوخه فالإنسان ما أن يطعن فى السن حتى يطعن عقله فى النسيان والهذيان ،عدت مكانى ثم نظرت إلى تلك الفتحة التى شع منها ضوء القمر بوجهى قائلاً

:ليتك أيها الغريب تأتينى ثانيا فقد أُصِبتُ من الوحدة ما لم يُصب بها أحد على الإطلاق ،كدت أن أرخى جسدى المتهالك على وسادتى حتى عاد الكروان مرة أخرى مغرداً ،فجأة ظهر الغريب مرة أخرى فى موضعه السابق أدركت أن فى إختفائه المفاجئ خوفا منى حينما إقتربت منه فجلست على ركبتى بعيداً عنه خوفاً أن يذهب مجدداً ،تحدثت إليه لأهدئ من روعه وخوفه الذى فاق خوفى درجات قائلاً :لا تخف منى فأنا لن أؤذيك ولكن أخبرنى من أنت ؟ وكيف أتيت إلى هنا؟ وتلك الزهرة التى تركها ذلك الكروان كيف عبر بها من بلاد المغرب ليلقى بها هاهنا تحت قدمى فى مصر فى تلك الغرفه الدانية ؟؟

فجأة ألقى بصورة على الأرض بينهما ، إقتربت فى تردد خوفا أن يختفى ورويداً رويداً إستطعت التقاط الصورة لكن الصورة غير واضحة فغيوم الخريف قد أخفت ضوء القمر أقترب من الشباك ولحظات إنقشعت الغيوم وأظهر ضوء القمر من بالصورة ،فجأة انتفضت صارخاً وألقيت بالصورة أرضاً ثم انكمشت على نفسى فى أحد أركان الغرفة المظلمة فقد رأيت للتو شبح من الماضى ،هربت الدماء من أوردتى وأُجحِظَت عيناى التى انهمرت بالدموع على وجنتى الشاحبتين وانطلق صراخى بالثقل الذى أحمله فى صدرى كانت النيران المتقدة فى قلبى أقوى من يداى التى حاولت بها إخماد صوتى ،ما أن جمعت شتات نفسى حتى إلتقطت الصورة من على الأرض واقتربت راكعاً بإضعاف الخوف الذى بقلبى من أن يختفى الغريب

لأقترابى منه ثم سألته فى لهفة :من أنت؟ لا يعقل أن تكون أنت من بالصورة ملامحك لا تحمل فى طياتها معرفتى بك من قبل ولا توحى بأنك شاب تداعبت أصابعى بأصابعه وغير الزمن ملامحه كما غيرنى ولا أظنك جنّى أوعِفريت ..بل أنت روح مرسلة تلك الروح التى تشبه الوحى التى يرسلها الله مكافأة لأوليائه الصالحين ...لكنى لم أكن يوماً ولياً ولا صالحاً ،لكنى كنت صابراً بما ابتلانى الله او راضياً بما عاقبنى به ..عشت حياتى تائها حتى أصبحت غريباً عن حياتى وألقى بى فى تلك الغرفة تائهاً لايعلم جِنّىٌ عنى ولا إنسِىٌ تكاد تتعفن جثتى ولا يعلم عنى أحداً نسيت العالم فنستنى الدنيا بما فيها ثم تأتى لتعطينى تلك الصورة بعدما رحل شبابى وأتى الشيب بشيخوخته ..من انت؟!

لاحظ أن ذلك الغريب لا يستطيع التحدث وكأنه دفع ضريبة وجوده بصمته ،إبتلعت ريقى وحاولت أن أتماسك ثم أخبرته قائلاً

:إن لم تستطع الإجابه فأومئ لى براسك أو بعينيك سأفهمك ،هل تعرف من بتلك الصورة؟..أومأ الغريب بعينيه : نعم . فسألته بلهفه ..هل قابلته عن قريب أم أن عفى عليها الزمن فى جيبك ؟ هل قابلته من قبل ؟ أومأ بعينيه : أجل . فسالته

: منذ متى؟.. أمنذ عقود ماضية ؟؟ هزَّ الغريب رأسه نافياً فاتسعت عيناى مصدوماً بسؤالى :

:أقابلته منذ مدة قريبة؟ فأومأ بنعم ،فانطلقت باحثا فى شىء قديم كحقيبة قد اختلط الزمن فى تطريزها أخرجت منه شيئاً واتجهت إلى الغريب مددت يدى إليه بها فإذا هى صورة فأثارت اندهاش ذلك الغريب .

كان (ماك) ذلك الغريب الذى اتسعت عينيه مصدومتين غير مصدقتين بأنه الآن أمام الجزء المفقود من روايته .. جزء كبدايه النهايه أراد أن يعلمها فى تجربته الأخيرة فى السفر عبر الزمن لكن لا يدرى ماهية ذلك الرجل العجوز أمامه وكيف يحمل ذلك العجوز صوره الشاب العربى ؟!..تلك الصورة التى اقتطعتها (ميلين) لنصفين أثناء مغادرتها بالأموال إلى مصر ،كيف استقرت فى يد ذلك الرجل بذلك المكان ؟! ،أيمكن أن يكون هو الشاب العربى؟! لكن كيف؟! ،نظر(ماك) إلى الرجل بعينان متسائلتان ففهم العجوز ما يدور فى ذهنه وعيناه مليئتان بدموع مترجية المعجزة ،فجأة وقف الرجل العجوز وخلع جلبابه الفضفاض فكشف عن قميص نسائى أوضحت عن ملامح جسد أنثوى نحيل هرم ثم خلع العمامة وفك رباط رأسه فانسدل شعر طويل أملس إمتزج به ذهب الشباب وفضة الشيب ،كان (ماك) شاخص العينين فقد رأى معجزة تتجسد أمام عينيه ،فى لحظة تحول الرجل العجوز إلى أمرأة تلك المرأة التى بحث عنها حتى انسدلت الدموع من عينيه فأسرعت بالإقتراب منه راكعة متأملة عيناه فانشرح صدرها وفاضت عينها بدموع الأمل قائلة

:دموعك تخبرنى أنك تعرف من أنا أليس كذلك أيها الغريب؟

إبتسم (ماك) ودموعه منهمرة حاول جاهداً أن ينطق بالاسم لكن تحدثت شفتاه دون صوت ففهمت ما قال ،فابتسمت باكية غير مصدقة هل ما يحدث معها الآن حقيقة أم خيال وجنون!؟؟ ،طلبت من (ماك) أن يعاود نطق الاسم بشفتيه مرة أخرى وفى كل حرف كان ينطق به شفتاه

كان صداه من الصوت يصدرمنها ،تحدث بشفتاه ما سمع بصوتها وعيناها متربصتان بشفتيه تتاكد أن ما قاله هو اسمها ..(ميلين)!!

ما أن سمع (ماك) الاسم حتى تسمَّرت أوصاله وتسمرت عيناه تتأملها من جديد فقد حدث أمراً غريباً إذ عادت الملامح الشبابيه إلى وجهها فى عينيه لدقائق كأن اسمها هو كلمه السر التى تعيد شبابها إليها من جديد لبضع دقائق فتأمل ذلك الجمال بعينيه فجأة عاد إليها وجهها العجوز من جديد ،كذلك دققت فى ملامحه أكثر لترى فيه ما تبحث عنه فتراءى لها شيئاً عجيباً إذ اتسعت عيناها رافعه ذلك الخطين الرفيعين من حاجبيها شاهقه الأنفس يدها على فمها كاتمه تلك الصرخه التى تعجز عن وصف ما تراءى لها الان قائلة فى إرتيعاب:

لا يعقل؟ اهذا انت ؟ ..اهذا انت حقا ؟! انت ذلك الرجل العجوز التى صاحبنى اسابيع طوال فى أحلامى ثم انقطعت عن زيارتى وانقطعت عن رؤيتى .. أيعقل أن تتجسد هنا أمامى لا أصدق !! أهذا أنت حقا ؟..وإن كنت كذلك فكيف تجسد من الأحلام إلى الحقيقة رغم كونك متجسداً كطيف ؟! ، تعجب (ماك) أيعقل أنها تتذكره كما كان يراها فى أحلامه وهى طفلة تمسك بيده لتريه عالمها ،هل ما يحدث هنا حقيقه أم جنون ؟؟ صرخت وهى تتحرك بالغرفة كطائر الكروان غيرعابئة أن يسمعها أحد فى جوف الليل ،ما أن هدأت قليلاً حتى اقتربت منه تسأله فى رجاء هل ستختفى مجدداً أم أن الله بعثك إلى حتى تقودنى إلى ملاذى الأخير كشابة إنتهى وقتها فى الدنيا ؟ ،لا تنظر إلى تجاعيدى فتلك العجوز التى تراها أمامك كانت يوما شابة يتراقص عنفوان الشباب بخصرها ،أعتقد أنك هنا لتسترجع معى ذكريات حياتى قبل موتى ،فكما يقول المسلمون ..عندما تحين نهاية الانسان تأتيه الملائكة ليسترجع معها كل لحظة قضاها فى حياته ..لكننى لا أريد استرجاع ما قضى من حياتى إلا فى تلك السنوات القليلة التى شعرت فيها بالحياة والسعادة تلك الفترة التى لم أعبأ فيها بأى شىء فى الحياة غير سعادتى لكننى دفعت ضريبة ذلك من عمرى ،ابتسمت فى سخرية دامعة قائلة

:لا أعتقد أن الذى أعطاك تلك الصورة مازال على قيد الحياة وإلا لكنت وجدته،لكن يبدوا أنك توقفت فى محطة معينة معه لم تستطع استكمالها كما توقفت معى فى محطتى الطفولية ولم تستكملها ،لكن أريد منك أن تزيل الشك فى نفسى ..هل حقا مازال حيا؟ ، قرأت جهله بالحقيقة من نظراته فهزت رأسها مبتسمة بسخرية من ذلك الأمل الساذج والدموع تداعب عيناها ناظرة إلى ضوء القمر وقد اعتدلت فى جلستها تنظر إليه كالتى تقرأ فى وجه القمر أيامها الغابرة قائلة

: الأن أدركت لما أنت هنا أيها الغريب ؟؟..لتأخذنى إليه ،لكن كما أخبرتك حياتى ماهى إلا تلك السنوات التى تذوقت فيها طعم الحياة... تلك السنوات التى تفتحت فيها عيناى فوجدت نفسى أعيش فى منزل يهودى لأم يهودية من أصول مغربية وأب يهودى من أصول مصرية ،يعيشان فى منزلهما بحارة من حوارى القاهرة ،مفعمة بحب الجيران لا فرق بيننا مهما اختلفت الديانة أو الأصول ،الكل يمتزج بالحب والمودة ؛ففى مصر ترى عشقها للغريب كعشق عودة غائب طال انتظاره لكن رغم ذلك لم يختفِ ذلك الصراع الدفين بين اليهود والسلطة والسيطرة والقوة ،البعض يرى مصر أرضه وأرض أجداده التى نشأ فيها واعتنق دينها ولا

مفر منها إلا لها والبعض الآخر استغلها للثراء كأرض خصبة تبحث عن من يحرثها ليستخرج كنوزها المدفونه دون النظر لهويته وديانته ،فامتزجنا فيها .

امتلك أجدادى اليهود تجارة القطن والمحالج والمكابس والتصدير إلى بلاد أوروبا ناهيك عن بيع وشراء الأراضى ثم الوظائف الحكومية والخاصة وتدريجياً حتى وصلنا إلى قصر الخديو ،ورويداً حتى أصبحنا اليد اليمنى له ،ومن نساء اليهود عشيقات ومن رجالها بنوك اقتراض وأعضاء حزب وغيرها ؛فأضحينا عنصر لا غنى عنه فى الكيان المصرى حتى إن جدى مِن مَن كرَّس أمواله وأملاكه لشراء حصة الخديو إسماعيل فى قناة السويس ،كان حصولنا على الإمتيازات الأجنبية هى الدرع القوى لإستمرار وجودنا على الساحة السياسية والإقتصادية فى مصر .

لكن الاوضاع كانت تتدرج إلى الأسوء بعدما ظهرت الدعوة الصهيونية وإنشاء وطن خاص لليهود ،البعض أيد الفكرة والآخر كرهها وانتقدها أشد الإنتقاد ،ولكن ما شغل بالى هى كلمة "وطن" ،ما الذى تعنيه ونحن الآن فى وطننا مصر حينها لجأت لأمى لأسألها أليست جذورنا مصرية فأخبرتنى أن أجدادى من يهود الأندلس النازحين أثناء محاكم التفتيش وتارة تنسى ما أخبرتنى به سابقاً وتروى قصة أخرى بأننا من اليهود العرب أصلنا بالمدينة ومكة وقد جئنا لمصر بعد الفتح الإسلامى ،وقصة أخرى أننا من مصر واعتنقنا اليهودية ولا مكان لنا سوى تلك الأرض أما رواية والدى التى ترسخت فى وجدانى وكانت أقرب إلى إقناعى حينما أخبرنى أن كل شبر على الأرض هو ملك لليهود فنحن الشعب الأقرب إلى الله ونحن الشعب المختار أما باقى الشعوب فهى أدنى منا مكانة ومنزلة إلى الله ولكن هناك مكان مقدس لليهود هناك بأرض فلسطين كما للمسلمين مكان مقدس بالجزيرة العربية وبعقلى الصغير سألت . لماذا لم نبنِ لأنفسنا مدينة بفلسطين منذ القدم كما المسلمون مدن مقدسة؟ لماذا الآن نبحث عن أنقاض قداس لم يعد له أثر؟؟ لماذا لم نحافظ على قداسنا كما حافظ المسلمون على اماكنهم المقدسه؟؟!! ،ثم تارة تخبرنى أن اليهود متأصلون فى مصر فهم بناة الأهرام لكنك أخبرتنى سابقاً أن المصريين القدماء هم من بنوا الأهرام فى وقت كانت اليهودية ديانة لبعض عامة الشعب الطبقة الكادحة ولم يكن منهم حكام فأي إنجاز قد ينسب لعامل وليس لصاحب العمل؟!

فمنذ متى تنسب الإنجازات للعبيد لا للسادة؟! ،كما أن المصريين شيدوا الأهرام قبل اليهودية ألا تعلم أن فرعون أراد أن يبنى سرحاً عالياً ليحارب رب موسى فى بدأ الدعوة اليهودية أى أن الأهرامات موجوده قبل الديانة اليهودية!! انعقد لسانه وكان الغضب جوابه ،لكن منذ ذلك الوقت لم أشغل بالى بأمر إنشاء وطن ،فليحترق العالم كما يريد ولا عيش بسلام كما أريد ،كأمى التى أعتنق الإيمان بأن الوطن هو حيث ذكرياتها وحريتها وحياتها ومذكراتها التى تعتبرها وطنها وملجأ خاص بها تهرب إليه من ضجيج ذلك الصراع الذى تعجبت منه فهذه المره الأولى على مدار التاريخ الذى يقام فيها وطن بناء على الديانه فقط دون اللغه والجنسية ،لكننى لم أسلم من النزاع بين والدى الذى كان يصر أبى على إلحاقى بإحدى المدارس اليهودية فى مصر ،بينما لم ترى أمى مانعاً فى التحاقى بإحدى المدارس المصرية والإندماج مع المصريين فرغم أنها من أصول مغربيه إلا أن حبها لمصر كان أضعاف مضاعفه من حب أبى ،فكان صوت أمى هو الأقوى فالتحقت بتلك المدرسة التى لن أنساها

على الإطلاق ،حيث التقيت فيها بذلك الذى أطلقت عليه (بيكاسو الأخرس) ذلك الصبى البارع فى الرسم كـ (بيكاسو) والذى إدعى أنه أخرس إلى أن ظهرت حقيقة أمره فى تلك اللحظه حينما وقفت فى موقف لا أحسد عليه أمام مسألة الرياضيات فوجدت من يهمس لى بالإجابه لم تصدق أذناي أن لهذا الصبى صوت وقد أنقذنى حينها من التوبيخ لكن عقلى تضارب بالأسئله التى كان أكثرها إلحاحا لماذا إدعى أنه اخرس؟ !

منذ ذلك الوقت لم أستطع محوه من ذاكرتى ،عقد العزم على سؤاله لكن لم أستطع كنت قليلة الحديث قليلة الإختلاط بأحد فتعاليم والدى كانت صارمة بعدم الإندماج مع أحد بينما تعاليم أمى أتاحت لقدماى الفرصة بالإنطلاق فى الحقول المجاورة لمدرستى لأشعر بحريتى والحرية لقلمى وأوراقى أتحدث بما فى مكنونى لها بما لا أستطيع البوح به لأحد حولى وفى ليله عقدت العزم على سؤال ذلك الصبى ..لماذا إدعيت أنك أخرس ؟

كانت الأوضاع فى مصر مضطربة للغاية بسبب هجرة اليهود إلى فلسطين وتفاقم الأحداث التى نبأت بقيام ثورة عن القريب العاجل وتأييد أبى بالمال لبعض العصابات اليهوديه التى تناضل فى جهاد الشياطين الاسم الذى أطلقته أمى على نضال اليهود ضد الفلسطينيين ... زاد حدة الصراع بينها وبين والدى فقررت بين ليلة وضحاها أن تسافر إلى المغرب لتعيش فى السلام الذى لا تستطيع إيجاده بين أحضان زوج يمول قتله ؛فسافرت بصحبة أمى إلى المغرب...وقد فقدت الأمل فى أن أمتلك فرصة سؤال ذلك الصبى حتى عن اسمه فأطلقت عليه ذلك الاسم صديقى "بيكاسو الاخرس" .

فى محاولات أمى مع عمى لاقناع والدى بألا يهاجر إلى فلسطين وألا يدعم تلك الحركات الصهيونية والهجرة الغير شرعية التى كان يعمل بها سراً وتمويل نقل اليهود بأمواله ،كان لدى أمل أن تعود الأجواء إلى طبيعتها وأن أعود إلى مصر قريباً لألتقى بصديقى لكن كانت الأمور لا تبشر بخير فسرعان ما سمعنا بإنطلاق الثورة الفلسطينية الكبرى التى أطلقت عليها أمى مذبحة الأبرياء أقسمت ألا تعود إلى مصر ما لم يتراجع والدى عن ما يدور بعقله وخاصة بعدما فشله فى التقرب من "يعقوب قطاوى" والحصول على الجنسية بعد إلغاء الإمتيازات الأجنبية بحكم إتفاقيه مونترو، فرغم مصرية اليهود فى الشكل واللغة إلا أن معظمهم لم يحصل على الجنسية المصرية! .

اقسمت امى ألا تقحمنى فى تلك الحياة المليئة بالحروب والدماء ،وعلى الرغم أن بلاد المغرب كانت هادئة من تلك النزاعات اليهوديه إلا أن أمى أصرت أن أكمل تعليمى بباريس فرحلت إليها بإحدى المدارس التى تدعم اليهود وتحرص على تعليمهم ،فتعلمت بها التلمود واللغة الفرنسية والعربية ،لكننى كنت أشعر بالوحدة الشديدة...كنت أؤنس نفسى بتذكر صديقى الأخرس وأقص له ما يحدث لى حتى أصبح كظلى أحدثه بما يخطر بعقلى ،عشت فى باريس كفتاة باريسية يهودية من أثرياء اليهود حياة متأرجحة ما بين حفلات السمر مع الرفاق والحفلات الصاخبة المليئة بما تهوى الأنفس من ملذات الدنيا واتخاذ خليل بما تهواه الأنفس لكن أمى دائما كانت تذكرنى فى جواباتها بتلك الثقافه العربيه التى كالأنفاس التى لا يمكن إنكارها حتى وإن أنكرتها نشأتى ببلد غير عربية ،حياة صاخبة مليئة بالضحكات المداوية لكنها ضحكات خالية من السعادة...أجساد تتراقصة على الموسيقى لكنها لم تنعم بملمس

دافىء من الحب الصافى ورفقاء لا عدد لهم ولا حصر لكنهم خالين من الصدق والوفاء وقلب ينبض راقصا بالحياة لكنه يفتقد ملذات الحياة وليالى طويلة هادئة تبعث الراحة فى النفس ،لكن فى مكنونها وحدة قاسية وقلب تائهة يبحث عن السلام الداخلى عن شىء مفقود لا أدرى ما هو ولا أعلم كيف أجده فأجد خلوتى فى تلك الأغانى الراقيه (لاديث بيف) Le Brun et le blond،أردد معها كلماتها أتلذذ باللغة الفرنسية مع أنغامها الرومانسية حتى صرت أعشق الغناء وأصبح هويتى المفضله الغناء والموسيقى إلى جانب دراسة الإقتصاد ،وحينما يزداد برد باريس بقلبى أسترجع ذكرياتى الدافئة فى مصر بسماع أغانى المطربيين المصريين ،وعندما أشعر بالوحدة أتخذ من رفاق الماضى أنس يملأ لى فراغى يختلق عقلى معهم أحاديث لم تُحكَ وأضحك معهم بضحكات لم أكن أتخيل أصواتهم كلماتهم ..نظراتهم وقصص سمعناها معا لكنها فى الحقيقه قصص لم تروَ قط .

وحينما إشتاق لأسرتى أسافر إلى المغرب حيث أمى ،أنتعم بدفئها أنفاسها وبورود النرجس المغربية ورائحتها التى تنعش الصدور وتنتشر فى الأرجاء بعد سقوط المطر وعند مغادرتى لا أنسى إقتطافى للعديد من تلك الأزهار ووضعها بكتبى وثيابى ؛فعندما يزداد الإشتياق لأمى ألقى نظرة إليها وأعيد برائحتها الأمان لقلبى ،ونادرا ما كنت أسافر إلى مصر حيث ابى واجتهاده الطويل فى المساهمه بأمواله فى نقل اليهود وتدعيمهم ومدهم بالسلاح وإقحامى بطريقة أو بأخرى لكى أدعمه فى أفكاره ،رغم أن مصر ميلادى ومهدى إلا أننى لم أنعم بين كنفها بالأمان والمرح لكثرة المشاحنات بينى وبين ابى الذى يرانى غير عابئة بهويتى وموطنى الجديد الذى يسعى اليهود لبنائه..لم أكن ذات منفعة له فاتخذ من (جونس) بن عمى يده اليمنى فى كل شىء تخص التمويل الصهيونى وشبكه التجسس السرية التى ترصد الفدائيين فى الجيش المصرى للخديو وترصد أى علاقة بين المصريين وحركات الفدائيين والمقاومة بفلسطين .

رغم بعدى عن أمور السياسة المعقدة ،ترسخ فى عقيديتى من الطفولة عقيدة أقوى من عقيدتى اليهوديه بأن كل أرض هى ملك لليهود وأننا شعب إصطفاه الله على جميع البشر نحن أسياد والباقية من عامة مخلوقات الله نحن نسل الأنبياء أما عامة البشر لم ينالوا شرف هذا النسل على الإطلاق.

وفى موج تلك الحياة المتناحرة كنت أذهب إلى تلك المدرسه أثناء زيارتى لمصر لأستعيد بها تلك الذكريات القصيرة الدافئة كخيط رفيع يربط قلبى بمصر وفجأه سمعت صوت الكروان وأنا أمامها فشعرت بشىء غريب يتخلل أعماقى بشارة قادمة لكن لا أدرى ما هى؟

لكل إنسان على الأرض نجم له فى السماء يموت النجم بموت الشخص ،وتنطفىء سمائه لكن نجمك لم يمت بداخلى أبدا ،ولا تزال سمائى منيرة بك .

باريس ١٩٤٤

فى ليلة باريسية مفعمة بالضحكات المدوية وكؤوس الشمبانيا يصدح صوت إلتقاء بعضها ببعض ،وموسيقى ترقص لها النبضات والخصور وابتسامات تلتقى بهؤلاء هنا وهناك ،عُقِدَ حفل خصيصاً للمتعاطفين مع القضية اليهودية والتى تزايدت أعدادهم بعد حرق هتلر لليهود ،يدعمون الهجرة اليهودية ويجمعون الأموال لمساعدتهم على بناء جيش قوى خفى يساعدهم فى مسعاهم لإنشاء وطن يهودى ،أصابنى الملل الزريع من إلقاء الإبتسامات المصطنعة والتحية على الحضور ،فرغم إقحام والدى لى فى تلك الحفل فقد كنت حديث من بها كنت إسترق السمع إلى إعجابهم بقوامى الممشوق وأزيائى الفاخرة وجمالى الذى لا يفوقه جمال ،إمتزج سحر الشرق بأناقه الغرب فتجسد فى فتاة تسمى "ميلين" فتاة شابة وابنة لأكبر أثرياء اليهود وأكبر مدعم للحركة الصهيونية فى الشرق الأوسط والتى لا عليها سوى تنفيذ أوامر أبيها لحضور تلك الحفلات مع بن عمها العاشق (جونس) ،لكن رغم تلك الضجة التى فى الخارج لم تحدث رعشة فى كيانى الداخلى لأشعر بشىء سوى الفراغ...الفراغ وكأنى مثل سماء بدون قمر أو نجوم سماء تحتضر ينظر الآخرون إليها كنجمة درية تتوهج بالحياة ،لكن وهجها سراب يخفى عن الأنظار موتها ،خرجت إلى شرفة مجاورة إعتزلت ذلك الصخب والمجاملات المزيفة...ما أن خرجت حتى رحب بصدرى تلك النسمة النقية التى ملئت رئتاى وتنهيدة قوية إتبعها صوت (جونس) مفاجىء لى قائلاً : لم أعهد سماع تلك التنهيدة القوية من زهرتى ميلين ،إلتفت إليه مبتسمة متقدمة نحوه ببضع خطوات رافعة إليه كأسى قائلة

:تلك الزهره بحاجه الى المزيد ...

:انت تشربين كثيراً الليله اظن ان ذلك كأسك الخامس ...

ابتسمت بسخريه : عزيزى (جونس) رغم قربك منى أنت لا تعلم شيئا عنى ،يخدعك ذكاؤك عندما يتعلق الأمر بى ،لكننى امرأة لا يفهمها الكثير تركيبة عقلية قد تثير مخاوفك...كان هذا كأسى الأول منذ بداية الحفل ،ثم غادرت (جونس) وعدت إلى الحفل وتوجهت إلى إحدى الطاولات ووضعت كأسى بجوارى شردت بعقلى قليلاً فجأة إنتبهت لصوت شىء ما يسكب فى الكأس رفعت نظرى إلى ذلك النادل فجأة تصلبت أوصالى وتسمرت عينى فى وجهه للحظة ظننت أن كثرة التفكير قى ذلك "البيكاسو الاخرس" فإن وجهه رسم فى وجوه الآخرين من حولى ..لكن أيعقل أن يكون هو؟! ،إعتدلت فى جلستى ورفعت الكأس على فمى فى دفعة واحدة لا أدرى هل لذع ذلك المشروب حلقى أم لذع قلبى ؟ . ثم بسرعه رفعت كأسى إلى ذلك النادل الذى هم بالذهاب ليملأه مرة أخرى لأعطى نفسى فرصة أكبر لأتأمل ملامحه قائلة بالفرنسية
: أسكب لى المزيد .

لم ينظر إلى وجهى لكن عيناى أفصحتا عن مكنونى وعلى معرفتى به ،شعرت بالحرج والتوتر الذى إنتابه ونظرت عينيه المتسمره إلى الكأس فى محاولة جاهدة ألا ينظر إلى كان الإضطراب يملؤه رغم ثبات يده وإتزان حركاته ،ملأ كأسى لكنه لم يملأ بعد شغفى به ،تأكدت شكوكه حول معرفتى به عندما ملأ الكأس ومازالت يدى مرفوعة إليه فنظر إلى نظرة خاطفة

ثم ابتسم إلى فى إنحناءة بسيطة وانصرف مسرعاً ،ألقيت بالكأس فى يد أحدهم ثم أختطفت كأس فارغ من أحد الحضور فى تعجب منه على هذا التصرف ،وأسرعت خلفه بحجه أن يملأ الكأس لاتحجج مجدداً لكن أثارتنى الدهشه عندما بدأ لى أنه يركض فى سيره السريع ،إتجه إلى المطبخ فأتبعته لكن أثار دهشتى حين رأيته يخرج من الباب الخلفى للمطبخ وضعت الكأس من يدى جانبا وأسرعت راكضة إلى حيث اتجه وشكوكى تتزايد حول هذا التصرف الغريب فجأة وجدت رجل أربعينى ما أن رآه حتى انضم إليه فى خفه مهرولا إليه ليتجها نحو سيارة تبتعد عدة أمتار قليلة عن مكان الحفل ،تيقنت أن هناك شيئا ما حول هذين الرجلين يتعلق بذلك الحفل . لكن لا أدرى ما هو؟؟! ،ولن أعرف إلا بلحاقى بهم لأكتشف الأمر .

بسرعة أوقفت إحدى السيارات وطلبت من سائقها أن يمضى فى الطريق حيث أشير له ،مضت ربع ساعه لم يستقروا فيها إلى مكان فجأة وقفت السيارة فى منتصف الطريق وخرج الرجل الأربعينى منها مسرعا بإتجاه سيارة أخرى ثم مضى فى الطريق المعاكس لنا ،إزدات حيرتى لما هذا التصرف هل أدركا بأننى أتبعهما ؟! ،طلبت من السائق أن يبطىء سرعته قليلا أثناء تتبُعى "للنادل" الذى إستمر فى طريقه لكننى كنت بين الحين والآخر ألقى نظرة خلفى أن يكون ذلك الرجل الأربعينى يتبعنى بسيارته وينكشف أمرى ،دقائق ووقف النادل أمام مقهى فى منتصف الطريق ثم أسرع بالدخول إليه ،طلبت من السائق أن يقف بالجوار واستمريت لدقائق أنتظر خروجه من المقهى لكن العجيب أنه لم يخرج!،

خرج رجلا فى الثلاثين من عمره تقريبا وركب سيارة النادل وأسرع بها مكملا فى نفس الطريق ،تعجبت من ذلك التصرف فصممت ان ارى ما الذى يحدث هنا أعثرت على خليه إرهابيه من الفلسطينيين أو العرب الذين يتجسسون على عمل الجمعيات الصهيونيه؟!، نزلت من السيارة مسرعة باتجاه المقهى لكن توقفت للحظة لا أدرى لماذا انتابتنى الشكوك؟؟ أن يكون فخ قد أساق إليه ويودى بحياتى لكننى نفيت عن عقلى تلك الفكرة فى لحظات واتجهت إلى المقهى الذى بدا من الخارج أنه ملهى ليلى تفرح منه رائحة الخمر الممزوجة بأجساد العاهرات ورائحتهم على أجساد رجال ممزوجة بشهواتهم المقززة ،إنتابنى شىء من التردد فى الدخول ولكنى أصبحت على أعتاب المقهى فكيف لى أن أتراجع ..لست أنا من يتراجع عن شىء صمتت على المضى فيه ،إقتحمت ذلك المقهى وعقلى يتسأل أى تلك العاهرات يرتمى ذلك النادل بأحضانها ليترك الحفل من أجلها؟ ،لكن فجأة إنهارت تلك الخيالات فى عقلى عندم رأيت المقهى شبه خالى إلا من بضع الزبائن يستمتعون بشرب القهوة وسماع الموسيقى ،وطأت به خطواتى وعينى تتفحص كل ركن فيه لعلنى أجد ما كان يرسم بعقلى منذ قليلا ،لكننى وجدت ذلك الجزء الهادىء الغير مألوف فى مقهى باريسى فى ذلك الوقت المبكر من الليل !!،فجأة أتى صوت من الخلف قائلاً

:مرحبا سيدتى اترغبين فى احتساء شىء ما ؟

إلتفت إليه ظننت أنه ذلك النادل لكنه كان رجلا آخر فى الأربعين من عمره طويل القامة مبتسم العينين الخضراوتين ذو بشرة بيضاء ناعمة وشعر داكن ألا من بضع شعرات بيضاء إرتسمتا على جانبى رأسه ،بحثت بعقلى عن حيلة ما لأسال عن ذلك النادل ؛فأخبرته بأنى أبحث عن نادل شاب فى العشرين من عمره يعمل هنا ،لكن الرجل بدون تردد نفى وجود أى نادل

يساعده فى عمل المقهى فأخبرته أنه قد دخل لتوه إلى المقهى لكنه نفى وجود أى رجل دخل الى المقهى سوى هؤلاء الزبائن المبعثرين على الطاولات والذى أشار عليهم برأسه ،إعتذرت متحججه بأننى ربما أخطأت المقهى ،كنت أحاول رصد أى شىء يثبت كذب ذلك الرجل فجأة لمحت باب خلفى بجوار البار قد إهتز للتو وكأن أحدهم كان يراقب من بعيد ماذا يحدث فتأكدت أن هؤلاء الأشخاص خلفهم شىء ما بالتأكيد وأن من كان يتلصص علينا هو ذلك النادل الذى أنكر الرجل الأربعينى وجوده ،غادرت المقهى مسرعه إلى السيارة وطلبت من السائق المغادرة لحظات مضت وأطلقت النظر خلفى لأرى أحدهم يراقبنى من نافذة المقهى .

ما أن إبتعدت قليلا حتى طلبت من السائق أن يتوقف وقررت أن أمضى إلى ذلك المقهى لأراقب من بعيد ما الذى يحدث بعدما أطمأن من يراقبنى أننى غادرت ،وقفت بجوار إحدى الأعمدة فرأيت سيارة توقفت أمام المقهى نزل منها الرجل الأربعينى الذى غادر بسيارته مسبقا فى سرعه ،ثم جاءت سيارة أخرى نزل منها ثلاثه أشخاص مسرعين إلى الداخل أيضاً ،شىء ما حثنى على المكوث والإنتظار ..إنتظار خروج ذلك النادل،ومراقبه ذلك الشىء المريب الذى يحدث ،مضت ساعه حتى ألمتنى قدماى فجأة تواريت عن الأنظار عندما رأيت الرجال يخرجون واحد تلو الآخر مسرعين بإتجاه سيارتهم مغادرين كل منهم فى إتجاه معاكس للآخر لكن النادل لم يخرج بعد! ،قررت أن أنتظر قليلاً ثم ظهر بعد أن مضت نصف ساعه على ذهاب هؤلاء الرجال يتبعه ذلك الرجل الأربعينى الذى أنكر وجوده يلقى عليه التحيه ثم أطفأ نور المقهى وركب الرجل سيارته مغادرا ،أخفيت وجهى بعيدا أثناء مغادرته بالقرب منى ثم إتجهت بنظرى بسرعه لأرى إلى أين ذهب ذلك النادل الذى إختفى فجأة فى غمضة عين ،ركضت فى الأرجاء أبحث عنه حتى رأيت شارع بجوار المقهى مضيت به أبحث عنه ،وأنا اتعجب كيف أختفى بتلك السرعة! .

فجأة لمحت رجلاً يرتدى معطفاً أسوداً طويلاً ،من بعيد فأسرعت إليه لعله هو لكن كلما خطوت خطوة بالقرب منه كان يخطو خطوات للبعد عنى ،أسرع فى خطواته حتى أصبحت أركض خلفه فجأة إختفى عن نظرى فى تلك الأزقه المظلمة الضيقة المتفرعة من بعضها البعض أتعبنى الركض فتوقفت ألتقط أنفاسى اليائسة من العثور عليه فى هذا المكان الذى يدب الرعب فى النفس من هدوئه وإنارته المنخفضة فجأه شعرت بأحدهم خلفى إنتابتنى القشعريرة والخوف تأجج فى صدرى ،فجأة سمعت صوتا متسائلة بفرنسية ركيكة

:لماذا تتبعينى ؟! ماذا تريدين؟

رغم أن الأنفاس حبست بصدرى وشعرت بتلك البرودة التى تسير فى أطرافى إلا أننى شعرت بالإطمئنان قليلا،..ألتقطت أنفاسى وكدت ألتفت إليه حتى رأيته يلتفت حولى وعيناه تتربصان بعينى بنظرة حاده أثارت الخوف بقلبى لكن فى أعماق عينيه قرأت تردده فى شىء ما ،إقتربت إليه لأرى ملامحه بدقه ثم سألته

:هل إلتقينا من قبل فى مكان ما ؟ أشعر أننا إلتقينا من قبل؟

فى هدوء :أجل..لقد تقابلنا..،إضطرب قلبى وسارت البرودة فى جسدى مرة أخرى وتحمست أن أسمع منه حقيقة أنه ذلك "البيكاسو الأخرس" لكن فجأة إنهار كل ذلك عندما قال

: أأنت تلك السيدة التى طلبت منى أن أسكب لها كاسين من الشراب فى الحفل.. أليس كذلك ؟،تحطم ذلك الأمل بداخلى أن يكون هو من أبحث عنه ،وأدركت أننى كنت ألاحق سراب ،ضغط على شفتاى فى يأس ثم نظرت إليه قائله

:أجل ..صحيح كيف لى أن أنسى ذلك ..المعذرة ،هممت بالذهاب بخطوات متثاقلة فجأة أوقفنى سؤاله :ألهذا السؤال قمتى باللحاق بى ؟!،إلتفت إليه قائلة

:أنت تشبه شخص أعرفه كثيرا إلى الحد الذى جعلنى على يقين لو أنه كان هنا لكان أنت

: وما اسم ذلك الشخص؟؟؟

تنهدت بعمق وأنا أمضى فى طريقى بعيدا عنه وجدت نفسى أتحدث باللغة العربية دون إدراك منى بذلك قائلة

:لا يهم لا أظن اننى سألتقى بذلك الصبى مره أخرى لا أظن أن ما فرقته الأيام فى مصرمنذ سنوات ستجمعه باريس هنا فى أزقتها فى هذه الليله...ذلك الصبى الأخرس البارع فى الرسم بالمدرسة الأميرية المشتركة بالقاهرة .. بيكاسوالأخرس ..أوبيكاسو الكاذب أيضا مثل ذرة الملح التى ألقى بها فى محيط لا أستطيع إعادتها مجددا ولا العثورعليها ،إشتقت إلى التلصص لرسوماته الرائعه ،إبتسمت والتفت إليه معتذرة عن حديثى بتلك اللغه التى لم يفهمها لا ادرى لما فى تلك اللحظه إنتابتنى الحاجة إلى التحدث باللغة العربية فربما لأنى أجد فيها ما يملأ عطشى الروحى من اللغة ،ثم هممت بالذهاب ،فجأة إستوقفتنى كلماته التى وقعت على كالصاعقة قائلا :

الكاتبة الصغيره؟! أهذى أنت حقا؟! الفتاة التى تكره حصه اللغة العربية رغم براعتها فى كتابة القصص القصيرة؟!

إلتفت إليه بعينين متصلبتين مندهشتين تشاهدين معجزة حياتى المفقودة ،ذلك البصيص من النور الذى فقدته فى سنوات حياتى المظلمة إنعقدت الألسن وأروت العيون عطشها بتأملها لتلك الوجوه التى لم تُمحَ ذكراها منذ الصغر ،إقتربت منه إلى الحد الذى كنت أتنفس فيها أنفاسه أتامل ذلك الوجه وتلك العيون لم يكن أقل صدمه منى كالذى وجد درته المفقودة أمام عينيه للتو وشهد معجزة من زمن الأنبياء ،فجأة وجدت يده المرتعشة متجهة نحوى..تراجعت بوجهى للخلف مترددة مترقبة إلى أين ستستقر يده بى؟!! فاستقرت يداً حانية دافئة يشع الحب من بين ثناياها تتحسس وجهى بعيون تلمع بها الدموع كاللؤلؤ تخشى أن تسقط من عينين شاخصتين يتأملان معجزة متجسدة أمامه ،لم يشعر جسدى برهبة أو خوف من ملامسته لى ، بل شعرت بألفة غريبة وكأن جزء منى يلمسنى ،فجأة فاضت عينيه بالدموع قائلا

:كيف لى ألا أتعرف على وجهك بعد تلك السنوات التى مضت...أأنت معجزة أم وهم خلق بعقلى من مدى اشتياقى إليك ..لقد رسمت وجهك فى كل يوم ،كنت تكبرين معى من ملامحك الطفولية إلى ملامح شبابية حتى تركزت صورتك بقلبى أبحث عنها فى فتيات وطنى ،رسمت من وجهك النصف الآخر لوطنى ،كيف؟!! ،لم أكن الوحيد الذى يتذكرك بل كنت أيضا تتذكرينى؟؟؟

في تلك اللحظة شعرت بأننا قد عزلنا عن العالم رغم تلك النزاعات والحروب والكراهية التى تضخ من أعماق العالم ..كانت هناك براعم من الحب تنبت في قلب صغيرين إتفقا سرا بأرواحهما على أن يتذكر كل منهما الآخر إلى ما لا نهاية رغم أن الألسن لم تنطق بذلك العهد أبدا ،حتى أنه لم يكتب لهما اللقاء مجددا في الكبر على ظهر هذا الحياه ،في اللحظة التى تحدث فيها بالعربية توقفت أنفاسى وكأنها حبست فى أعماق صدرى وتجمدت أوصالى ..كادت ضربات قلبى المضطربة تسمع فى أرجاء باريس لا أدرى أهى من السعادة التى تعجز الكلمات عن وصفها أم من المعجزة التى لم أؤمن يوما أنها ستتحقق أم من حقيقة الأمر أن من رسمته في خيالى واستمريت في البوح له بأسرارى رغم غيابه يقف بين يدى الآن .

لم تكن مشاعره أقل من مشاعرى إتجاهه فقد إرتسمت الصدمة والحيرة والخوف بذلك الخليط من المشاعر فيه وكان لحظه ميلاده إلى الحياة جاءت في تلك اللحظة التى وجدنى فيها أمام عينيه البنيتين الواسعتين وزادتهم دهشته إتساعا ووجهه الشاحب وأنفاسه المضطربة وتسمره مكانه وعينيه التى تتفحص ملامحى وتعود بالزمن إلى الخلف ليستجمع تلك الصورة القديمة لى من ذاكرته ؛ليتأكد أنى حقا تلك الفتاة التى تتجسد أمامه...أم أن عقله قد خيل إليه ذلك الأمر! .

إنعقد لسانى عن الكلام رغم أننى كنت الأكثر جرأة.. دائما الفتاة التى لم تخش يوما أن تبوح بما يخطر في عقلها أو قلبها مهما كان الكائن امامها ، المتمردة كالموج الذى لا يكبح جماحه شىء على الإطلاق .

انعقد لسانها فى تلك اللحظة عن الكلام وساد الصمت الرهيب ، فجأه كسر ذلك الصمت بسؤاله

: "بيكاسو الأخرس" ! أهكذا أطلقتى علىَّ؟!

أنت ذلك الصبى البارع فى الرسم بالنسبة لى كابيكاسو والذى إدعى بين الجميع أنه أخرس ،لكننى الوحيدة التى علمت بسرك لكنك آثرت الصمت ولا أدرى لماذا؟!، لم تفارق عقلى لحظة واحدة واتخذت منك ومن ذكريات طفولتنا خليل لى أحكى له عما مر بى يومياً دون كلل أو ملل.

:أهكذا يجمعنا القدر دون لقاء مدبر!

بعيون دامعه: لا شىء فى تلك الدنيا يخلق صدفة يا إيلياء

تعجبت من الاسم قائلة : إيلياء؟! أنا اسمى .. قاطعها قائلاً: لم أعرف لك اسم أو كنيه فأسميتك باسم وطنى .. إيلياء ..ألم أخبرك ؟ رسمتك فكان نصف وجهك وطنى ،والنصف الآخر أنت..

رددت الاسم الذى بدأ لى مالوفا إلى حد ما لكن لا أتذكر أين سمعته من قبل ؟! ،إقتربت إليه أكثر حتى كادت وجوهنا تلتصق ببعضها البعض دون أن يقشعر جسدى ودون أن يرهب هذا الإقتراب حتى كادت أنفاسنا تختلط ببعضها متسائلة والشغف يملؤنى ،هناك أسالة كثيرة

تتضارب بعقلى أولها من أنت وما اسمك وأين اختفيت طوال تلك السنوات وهل هناك وطن يدعى إيلياء على هذه الأرض؟ !

إبتسم قائلا : بالطبع هناك .."القدس" أسميتك بأغلى ما أملك في حياتى وهو وطنى

: أنت يهودى.؟!

إبتسم ساخرا : بالطبع لا!... منذ متى كانت إيلياء أو القدس ملك لليهود على مر التاريخ! ..أو ذات هوية يهودية ؟ ،تسائلت وقلبى يكاد يتوقف من تلك الإجابة التى أصبحت على يقين بها .

إذاً..أنت ،قاطعنى قائلا فى فخر

: فلسطينى ..أنا عربى فلسطينى..

تجهم وجهى وسحبت الأنفاس من صدرى وشعرت بأن الدنيا لا تستقر تحت قدمى ،لاحظ بذكائه ذلك التغير المفاجئ بى فسأل فى تعجب .

ما الأمر؟! أنت بخير؟!

إبتلعت ريقى قائلة فى تردد : إعتقدت أنك يهودى مثلى ،تجهم وجهه هو الآخر وتحول إلى الإصفرار وكان الحياة قد سلبت من قلبه واسودت الحياة في عينيه وتراجع بخطواته إلى الخلف يحاول التماسك وبلسان متثاقل سألنى .

:يهودية؟!

نبرة الخوف فى صوته وانطفاء تلك اللمعة فى عينيه أتاحت لى القدرة على قراءة ذلك القدر المشؤم الذى جمع بين روحين دون قدر،تراجعت يده عن وجهى وانعقد لسانه عن الكلام إستيقظ فى تلك اللحظة على حقيقة فقدان وطنه وموطنه وتلك السنوات التى ترعرع على ذكرياته .

تساءلت بلسان يدرك الجواب لكن أردت التأكد: أنت مسلم ؟..

إبتلع ريقه واستجمع قواه المتناخره قائلا في صوت يكبح ذلك البركان المشتعل فى صدره

: عربى مسلم ..من فلسطين ،تراجع بخطواته للخلف أدركت أنه يرغب في الهروب ليفض عن نفسه ذلك الغضب المكبوت ،ثم إلتفت مغادرة وعيناه تفيضان بالدموع فأوقفه سؤال خرج من فمى بتلقائية

ميلين..اسمى ميلين ..ما اسمك ؟

لكنه تجاهلنى وذهب مسرعاً حاولت اللحاق به لكنه أسرع الخطى واختفى عن عينى بين الأزقه فأدركت أن ذلك هو اللقاء الأول بيننا وكذلك اللقاء الأخير وكان القدر أراد أن يقطع إرتباط قلوبنا بذكرياتنا الطفولية التى لا تغنى ولا تشبع من جوع وأن تبصر قلوبنا على حقيقة

أننا كشروق الشمس وغروبها لا يلتقيان فى سماء واحدة والطريق بينهما مخضب بالدماء فى صراع على تلك الأرض .

عدت إلى الحفلة التى اكتشفت إنتهائها ورحيل الجميع والقلق الذى اعتلى وجه (جونس) وهو ينظر في ساعته ،ما أن رأتنى عينه حتى اتجه إليَّ في ذعر متسائلا عن سبب إختفائى المفاجئ هكذا، لكننى اتخذت من شعورى بالتعب والإرهاق سبيل لأخفى عليه الحقيقة ثم إدعيت أننى مازلت أشعر بالصداع وطلبت منه إصطحابى إلى المنزل ،لكن ذلك القلق المتقد بداخله أثار الشكوك فى نفسه فتلك الحاله التى ابدو عليها لا توحى بالمرض بل هناك شيئا ما قد انطفأ بداخلى ،كأن العالم قد هدم فى تلك اللحظة التى رحل بها دون كلمة تلك اللحظة التى أدرك فيها كل منا أننا لن نلتقى فى سماء العشاق يوما ،فإن كان الزواج نصيب فإن الحب قدر ،وقدرنا أن يحب كل منا الآخر دون نصيب .

توقفنا أمام المنزل فجأة إقترب (جونس) نحوى فى هدوء ليسرق قبله من وجنتى فأبعدت وجهه عنى ..أدرك أن محاولاته المتكررة الفاشلة لابادله نفس شعوره بالحب لم تفلح إلى الآن خلال تلك السنوات التى قضيناها معاً فى باريس ،تنهد فى عمق متسائلاً فى غضب

: إلى متى ستظلين تبنين تلك الجدران بيننا ... تعلمين ما أريد ..إن أردتى الزواج فلنسافر من الغد إلى عمى أطلب يدك منه ولا نعود إلا كزوجين ..تنهدت فى هدوء فأنا أدرك إلى أى مدى يشغل حبى قلبه نظرت إليه مبتسمة قائلة

:أنت تدرك ما المكانة التى أحملها لك بقلبى ..فأنت الصديق الوحيد الذى أرتمى بين أحضانه من ذلك العالم وأنت الأخ الذى لم أحصل عليه والأهل فى غربتى والأب الذى حرمت من حنانه فى حياتى .. لا أريد لك مكانة أخرى قد تدمر تلك المكانة التى أحملها لك ..عليك تقبل ذلك.. لديك (كاميليا) فهى تعشقك بمقدار عشقك لى وأنت تدرك ذلك أيضا ،أشاح بوجه بعيداً فمسكت يده قائلة

: أعلم مقدار ما تكنه لى فى قلبك من حب لكن لا تجعلنا نخسر ما بيننا مقابل شىء لن يحدث وأن حدث فسيهدم كل شىء بنيناه فى حياتنا..أرجوا منك أن تتفهم ذلك .

ذهبت الى غرفتى وألقيت بالدنيا على الأرض مع حذائى ثم ألقيت بنفسى في بحر من الدموع والألم الذى كاد أن يوقف قلبى ،ما ذلك القدر المشؤم الذى يجمع قلبين دون قدر .. روحين خلقتا لا للحب بل لإضرام حرب ضارية بينهما حرب من أجل الحب المحرم ،وحرب على أرض مقدسة لا ندرى من الفائز فيها بعد ،لماذا أراد الله لى أن أبنى حياتى على أطلال وهمية ثم يرسل لى البشارة بأن ما قمت ببنائه حقيقة أقرب إلى المعجزة ؟ وفجأة ينهار كل شىء وتصبح حياتى بين ليلة وضحاها كالهشيم تزروه الرياح ،ربما أراد الله ذلك اللقاء لأستفيق من تلك الغفلة التى غلفت قلوبنا لسنوات طويل ونعيش الواقع المؤلم لنشعر بالحياة التى شارفت على الموت ونحن أحياء ،لكن هل أستسلم لذلك القدر العجيب ؟ فنحن كروحين يستحيل أن يجتمعا إلا فى عالم الخيال فكيف للمجنى عليه أن يعشق الجانى وكيف للسجين أن يعشق سجَّانه ؟ وكيف لمن فقد أرضه وعرضه أن يعشق من سلبها منه ..لا يمكن أن يكتمل ذلك القدر أبداً فلا يمكن للملائكة أن تعشق الشياطين، لكننى لن أستسلم أبداً .

مضى أسبوعين على ذلك اللقاء الذى لا أستطيع وصفه باللقاء المشؤم بل كان لقاء كالعسل المسموم بالحقيقة القاتلة فكثيراً ما تكون الحقيقة مؤلمة وقاتلة فى أحيانا أخرى ،ليتنا لم نلتقِ ليستطيع كلا منا أن يكمل حياته بدون ذلك الأمل باللقاء.

جلست فى أحد المقاهى الباريسية المطلة على الحدائق الرائعة رائحة أزهارها تشعرنى بأننى فى انتقلت من تلك الحياة القاسية إلى أحضان أمى الدافئة الآمنة بالمغرب فجأة رأيت ذلك "البيكاسوالأخرس" جالساً واضعا ساق على الأخرى يقرأ فى دفتر صغير يبدو عليه القدم على مرمى نظرى فى تلك الحديقة ..شعرت حينها أن الأنفاس قد عاد إلى صدرى وذلك البعد الفسيح بيننا أستطيع أن أطويه لأجعله أقرب مما يبدوا عليه ؛فانتفضت مسرعة إليه دون تردد ما أن أقتربت منه حتى اضطربت انفاسى وشعرت بخوف ما يتخللنى لا أدرى ما الذى سأقبل عليه الآن وهل سينال استحسانه أم أنه سيبتعد عنى ويوارى بظهره لى من جديد ولكن هناك شىء ما بقلبى لم يعد يستطيع الإستمرار فى تلك الحياة بدونه ..إقتربت إليه قائلة فى تحدى

: إيلياء..اسمى ايلياء .

إلتفت إليَّ عاقدا حاجبيه في تعجب مخلوط بحزن فشل عن إخفائه ،متسائلا فى تعجب

: ما معنى ذلك؟!

إنهارت تلك الجدران التى إحتضنت بها قلبى عن حب "جونس" أمام حبه فنطقت لا أدرى ماذا أقول لكن قلبى من كان يتحدث .

فأخبرته أنا اسمى "ميلين" ولكن من اليوم أنا اسمى إيلياء وأحب أن أكون هى ،حاول إخفاء دموعه اللامعة فى عينيه فى غضبه وعاد إلى مكانه مرة أخرى واضعاً ساق على اخرى متجاهلاً كلامى ،فجأة شعرت بيدى تهوى على كتفه بقوة فى غضب لا أدرى كيف ومتى إنهالت يدى عليه ؛لكنها حركة لا إرداية نبعت من الغضب المكنون بداخلى لتجاهله لى فأنا امرأة لا يتجاهلها أحد على الإطلاق ،وقف واتجه نحوى فى غضب كاد أن يتحدث فعقده كلماتى لسانه عن الحديث عندما إنفجرت بوجهه صارخة

:أنت الشخص الوحيد في حياتى الذى عشت على أمل اللقاء به تمنيت رؤيتك يوميا حتى لو تمثلت لى شبحاً فى أحلامى ..أنت من عشت أنس خلوتى ووحدتى معه. إن كنت تخشى منى لكونى يهوديه فأنا لست بصهيونية ولا أنتمى لهؤلاء وأن كنت قضيت عمرك في حب وطنك فأنا أرغب في أن أكون وطنك حقاً وأن تكون أنت وطنى ..من اليوم ليكن اسمى كما أسميتنى (إيلياء) لكننى لا أقبل أن تتجاهل ما زرعته فى قلبى لك طوال تلك السنوات أنا لا أعير لهذا الكون الحقير إهتمام على الإطلاق تلك السنوات الخاوية التى عشتها كنت أزينها فى خيالى بلقائى بك أتخيل كيف أصبحت؟ ..أتخيل أحاديث بيننا لم تحدث أتخيل ضحكات لم تسمع ،ما زالت ملامحك مرسومة بذاكرتى رغم تلك السنوات الكثيرة فى البعاد حفرت وجهك بقلبى وهنا بذاكرتى دون أن أنسى تفاصيله وبدون صورة لنا على الأقل ..إستطعت تميزك من بين البشر آمنت بوجودك على قيد الحياة وأن الأقدار ستجمعنا يوما ما وها قد عثرت عليك ..لا أستحق ذلك الحكم القاسى بابتعادك عنى من أجل هويتى فدينك لا يمنعك حتى من الزواج

باليهودية على الأقل أخبرنى ما هو اسمك الحقيقى ...أخبرنى ،فجأة أوقفنى صوته مردداً. اسمى

: "ميلين" ،نظرت إليه فإذا بعيناه مليئتان بالصرامة التى أخفقت قلبى فتراجعت خطوة للخلف فجأه تركنى دون كلمة مغادرا فى إحدى السيارات ،تصلبت أوصالى لتلك النظرة المرعبة .ما الذى يقوده فى ذلك العالم لكى يقسوا على نفسه بالسجن فى الحياة من أجل أرض لن تعطى له سوى الألم والموت ،ألم يكن حديثى ذات تأثير على هذا القلب الذى ادعى محبتى ..كيف له أن يتركنى وقلبى مشتعل به ،فجأة إنهمرت دموعى وانهارت دروع شخصيتى القوية أمام ذلك الجبروت الذى زرع فى قلبه،حاولت التماسك وأخذت العهد على نفسى أن أنساه مهما اتخذ منى ذلك الأمر من سنوات.سأحاول نسيانه حتى لو دفعت سنوات عمرى ثمن لنسيانه لكننى لم أنساه!! .

مضى شهرين لم نلتقَ فيهما ولو صدفه ،رغم أنى عاهدت نفسى على نسيانه إلى أننى كنت أبحث عنه فى كل مكان أجلس فيه لعلى أراه ولو صدفة فأشبع لهيب ذلك الشوق المتقد بقلبى ،انقطع أى أمل فى أن أراه مجددا تلك النظرة التى لا أستطيع محوها من ذاكرتى كلما تذكرتها تثير القلق والخوف بقلبى تخبرنى أن لا مفر من ذلك القدر الذى كتب علينا ،مضى ذلك الوقت القصير كدهر من الزمان وكأنى عشت ضعف تلك السنوات التى لم أره فيها أضعاف مضاعفه .

في ذلك الوقت كنت أعيد كل شيء حدث بيننا أحلل نظراته ودموعه المكبوتة وغضبه الدفين ،لكن إختلط على عقلى تفسيرها ،هل تلك الدموع في عينيه غضبا لكونى يهوديه؟ أم أن الأمر تخطى ذلك بكثير ورفضه الغير مبرر لى بعدما أخبرته أننى يهوديه لا أعتنق ذلك الفكر الصهيونى الذى يسعى لسرقة وطنه وتاريخه .. إلى ذلك الحد وصلت به الكراهيه! ،على الرغم أن الشرق ممتلىء بزواج المسلمين من اليهوديات ،فى أثناء وجودى في مصر لم أر فارقاً بين اليهود والمصريين ،فمنذ العصر الحديث بدأ اليهود يأسسون لأنفسهم كياناً بمصر كأى مصرى عادى يحمل ديانة مختلفة مثل غيره من المسيحيين والمسلمين وفى النهاية نحن جميعاً أصحاب ديانات سماوية نابعة من إله واحد وهو الله فلما ذلك الإختلاف ،عشنا كغيرنا فى الأرض ،أسسنا المدارس اليهودية في الثمانينات والمدارس الطائفية لليهود منذ عهد سعيد ،بل كانت مصر ملاذ لكثيرمن اليهود أثناء الحرب العالمية الأولى وهاجر الكثير من اليهود الفلسطنيين إلى مصر بعدما منعهم الوالى العثمانى إلا يشاركوا في الحركات الصهيونية وجرد جميع اليهود من السلاح ولم تكتف مصر بإحتضاننا كيهود بل إحتضنتنا كجزء لا يتجزأ منها فدفع معاش كبير لليهود ليستطيعوا العيش فى مصر ،وصل في ذلك الوقت إلى مائة جنيه ،بل كنا جزء من الحركات الوطنية كأى وطنى يدافع عن وطنه وملجأ كيانه وهويته أثناء أصطحاب الوفد المصرى مستشارين للتفاوض مع الإنجليز وكان منهم يهود ،أسسنا البنوك واقترض الشعب منا حتى الخديو نفسه ،بل منذ وقت سجل أول وزير ماليه من اليهود فى مصر ،وكثير من تلك الأمور فالأمر بالنسبه لى لم يكن بتلك الصعوبه فأنا لم أعبأ أبدا على الإطلاق بخلاف والدى وأصدقائى الذين ينعتونى بالمتمردة ،فما المانع بالنسبه له من رفضه للقبول بى وبما يحمله قلبى له!! ،من أجل أرض؟! من أجل حفنة من التراب لن توارى جسمانه أن مات هنا فى بلاد لا تحمل فى كيانه هويتها .

فقدت الأمل فى عودته مرة أخرى فعدت إلى الإهتمام بدراستى حاولت أن أشغل عقلى بالدراسه وكأن شيء لم يكن لكن قلبى كان له رأى آخر. ففى حديقه الجامعه كنت أبحث بنظرى فى من حولى ؛ لعلى أجده .

أعلم أننى لن أجده فيهم ولكن قلبى لن يهدأ إلا بتلك الطريقة خطر بعقلى أن أذهب إلى ذلك المقهى الذى اختبأ فيه لكنى خشيت أن أجد نفس المصير مرتين مصير رفضه لى وإنكار ذلك النادل الأربعينى وجوده..لم أجد مفراً من إرغام عقلى على التركيز ،حاولت قرأت ذلك الكتاب الذى بين يدى فجأة جاء صوتاً من خلفى قائلاً :

"ميلين" اسم رائع أظن لو أنى قضيت عمرى في تخمين ذلك الاسم فلن أستطيع أبدا معرفته ،إنتفضت واقفه ملتفته إليه وعيناى لا تصدقان إنه قد عاد مرة أخرى حاولت التماسك بألا ألقى بنفسى بين ذراعيه فرحة بذلك اللقاء..أدركت من إبتسامه عينيه إدراكه ما كنت مقبلة على فعله ولكننى تراجعت كانت الإبتسامة هى عهد الأمان بأنه لن يوارى لى ظهره مرة أخرى وأن الأمل قد عاد ليخطو خطواته فى علاقتنا ،ما أن جلس بجوارى حتى تيقنت أنه سيكتب شيئاً ما جديداً بيننا وستعقد مفاوضات لإستمرار تلك العلاقة التى بدأت ملامحها تتضح ناسين ما مضى بيننا من خلاف وكأنه شئ لم يحدث قط ! .

ما أن جلست حتى بادرت بالحديث لأنهى تلك التساؤلات التى من المؤكد أنها تتخلل عقله قائلة : أنا لست صهيونية بل يهودية وهناك فرق بين...قطع حديثى قائلاً

: ما رأيك بأن أدعوك إيلياميلين ،إنعقد لسانى لحظات ثم إلتقطت أنفاسى وكأننى أتنفس للمرة الأولى في حياتى متعجبة..إيليا ميلين؟! ..فهزّ رأسه قائلاً

:أجل اسمك كوطنى يترنح تاريخها بين الحرب والسلام والوطن الذى لا أستطيع التخلى عنه أبداً ،إنهارت تلك الأفكار ببناء وطن أمام إختيار بناء حب ،بميلاد تلك اللحظة تذوق قلبى طعم الحياة تلك البراعم التى خلقت بداخلنا ونحن صغار تفرعت حتى صارت هى القلب النابض بصدورنا بدأت حياتى تشع بالحياة التى إفتقدتها منذ صغرى ولكن دائما كان يتردد على عقلى سؤال لم أستطع سؤاله لماذا ؟!..لماذا عدت إلى مجدداً؟؟ وأين إختفى ذلك الغضب المكنون بصدرك؟؟ لكن كان يتردد على أذنى كلماته قائلاً

: لأنك موطنى ووطنى الذى لا أستطيع التخلى عنه ،لكن قلبى يخبرنى بأن حقيقة عودة شيئاً آخر لن يستطيع الإفصاح عنه ؛فما هى تلك الحقيقة يا ترى؟

إقتربت إليه متسائلة : والآن أخبرنى ما الاسم الحقيقى لـ "بيكاسو الأخرس" ؟

إقترب من وجهى قائلا : "ياسين" .

لا أنسى ذلك الوقت الذى تجمعنا به ولا أزقه باريس التى إشتاق إلى أركانها كثيراً فى تلك الأيام هدأت الأمواج الصاخبة بداخلى وتوجت إبتساماتى بالسعادة وأصبح وجودى فى الحياة معنى آخر ،إجتمعنا كروحين متألفتين كأننا نفسين خلقت من نفس واحدة.. كان الشغف يملأ صدرى بأن أعرف عنه ما مضى خلال تلك السنوات الماضية كما أنه كان أكثر شغفاً

لمعرفة سبب إختفائى الخفى عدة أيام من المدرسة أدركنا سر ذلك الإختفاء فى هجرته إلى أرضه وهجرتى إلى المغرب لأقضى ما تبقى من حياتى هناك ..كلا منا انفصل فى طريقه الخاص ليكتب القدر كلماته ونلتقى مرة أخرى ..فى نظرى كان رجلاً وجدت فيه تلك القوة التى تهيب الجبناء ،وذلك الحنو الذى أغدقت على به أمى والحكمة والرزانة فى نظرى. كان الرجل الوحيد المثالى الذى تراه عينى .. لكن قلبى دائما كان يحدثنى بخوف أن أفقد تلك النسمات من الرحمة التى أرسلت إلى من السماء فيه مضت علاقتنا بألفه غريبة كل لحظه تمر بنا كانت تربط أرواحنا وقلوبنا ببعضها البعض ،فلم يمض كثيراً من الوقت حتى أعترف كلا منا شغفه بالآخر رغم أن ذلك الشغف أفصح عن نفسه فى أول لقاء لنا بعد الفراق الطويل ،لكننا لم نفصح به بالألسن بل بالأفعال. كنت أكثر إلحاحاً لأن أعيش بين أحضانه كفتاة عاشقة عطشة لإرتشاف كأس من الحب بين أحضانه الليلية لكنه كان يرفض ذلك بلطف وحكمة. كان يهرب من شغفى لإرواء عطشى إلى الصلاة . كنت أراقبه وهو يصلى فى إتزان ورزانة وفى عقلى أتخيله فتى صغيراً مثلما كان بالماضى . كان رفضه لى فى كل ليله يشعل قلبى خوفا أن يكون ما بقلبه لى ليس حبا وأن هناك سراً أخراً سبب ذلك الرفض حتى أدركت حقيقة ذلك الرفض فى تلك الليلة التى قبل فيها أن يروى عطشى ببضع القبلات فقط وأن يؤنس فراشى بنومه بجوارى ،مهما حاولت معه من مغريات لينخرط معى فيما أريد كنت أفشل .

فى تلك الليلة تحسست دفء جسده بجوارى لكن لم أجده فانتفضت مرتعبة من نومى ظننت أنه قد رحل وتركنى وصدقت شكوكى فى إمتناعه عنى بأنه لم يكن ينبض بقلبه حب صادق ،أسرعت أبحث عنه فى أرجاء المنزل فوجدته فى غرفة المكتب منهمكا في أمر بين أوراقه المبعثرة فى صرامة وجدية وتلك النظارة الرائعة التى تزيده وقاراً وجمالاً لم أرغب في أن أقطع عليه تلك الخلوة ولم ارغب فى ان أفسد على نفسى لحظات تأملى له وتلك العلامات الحازمة على وجهه فدائما كنت أرى الإبتسامة مرسومة على وجهه وتلك البشاشة النضرة على وجنتيه لكن قلبى إشتعل حبا وشغفا وعقلى يتضارب حول إجابه مقنعة لسؤالى لماذا لا يريد قضاء ليله نمارس فيها العشق معا فنحن الآن فى باريس لا عادات ولا تقاليد شرقية تقيدنا وبالنسبة لى فإن الحب هو الرباط المقدس الذى يبوح لى أن أفقد كل ما أملك من أجله، تصنعت الغضب وذهبت إليه متسائلة وأنا أصرخ بوجهه لماذا؟ ..لماذا دائما تتهرب منى؟ لماذا لا تروى عطشك منى؟ تلك النظرات العطشة فى عينيك ودفء قلبك وجسدك تخبرنى مدى إشتياقك لى ورغبتك فى إرواء ذلك العطش . لكن دائما كان يقابل غضبى برزانه وهدوء رهيب أكاد أطلق عليها حكمة من لا يملكون حكمة فى هذا الزمان .

مد يده إلىَّ بدفتر قائلاً

: لا أريد منك قضاء الليله بجوارى على الفراش بل أريدك أن تقضى ليلتك مع هذا الدفتر أرجوا أن تقرأيه بتَمَعُّنٍ وتفهمى كل ما فيه وفى الصباح لنا حديث آخر.

تعجبت من الأمر ما الذى قد يحتويه هذا الدفتر ليمنعنى من ممارسة الحب معه ،أيذكرنى بالعادات والتقاليد الشرقية التى أريد أن أتجرد منها معه؟؟ أم بشىء دينى لم أقرأ عنه فى حياتى؟ فالتلمود لم تمسسه يدى منذ أن كنت طفلة إلا بضع الآيات أرددها بعد سماعها من ألسن الحاخام .

جلست بالمكتب أقرأ فأدركت حقيقة الأمر ورفضه القاسى ،تلك الذكريات المؤلمة التى دونها بدفتره عن فقدان والده وأخيه الأكبر أثناء وجوده بمصر حتى أنه لم يحظَ بفرصة توديعهما وتشتت إخواته فى كل مكان بفلسطين خوفا أن يعثروا عليهم وتباع أرضهم بالإجبار والخوف عليهم من القتل وحركات الإغتيال على يد عصابات الشيترون وإيتزل والجماعات اليهودية ،وفقدانه لأخيه خالد بعد ما عثر عليه كطفل مجاهد بين فرق المجاهدين والتضحية بحياته من أجل الإحتفاظ بحياته وهروبه إلى بيوت أخواله بغزة إلا أنه لم ينجو من ذلك الصراع الذى فتح على مصراعيه بين اليهود والبريطانيين فى تحديد عدد المهاجرين اليهود وصراعه حول أرضه فأعدم ظلما من قبل الشرطة البريطانية العسكريه بفلسطين مثله مثل آلاف ممن أعدوموا فى ذلك الوقت ،فقد الأب والإخوة واحداً تلو الآخر وآخرين لا يعرف لهم سبيل وربما كان سبيلهم مقبرة فى باطن الأرض فى قرية هنا أو حارة هناك أو تحت أقدام اليهود والأراضى التى يتراقصون عليها بعد إغتصابها حتى إنه لا يدرى أين هو قبر أخيه (خالد) الآن فلم يستطيع الحصول على جثته بعد قتله ،وعمه (هارون) الذى كان مثل حلقة الوصل بينه وبين ما يحدث بفلسطين أثناء دراسته بالخارج والتضحية بحب عمره ،فتاة مصرية أُهِيم فى حبها عشقاً أثناء تواجده بمصر أراد أن يعود اليها لكن حب الوطن أقوى من أى حب كان ،لا أدرى ما ذلك الحب القهرى؟؟ لا أظنها رابطة حب فقط بل رباط مقدس يربط تلك الأرض بتلك القلوب .

فى إحدى المناوشات قتل عمه "هارون" وهو يحمى ياسين من رصاصات عصابات اليهود التى أمطرت على رؤس أهل القرى ليتركوا منازلهم واجبارهم على النزوح عنها ،حتى أنه لم يكن بإستطاعته دفنه فدفن فى المقابر الجماعية ،أراد فى آخر حياته أن يسافر إلى مصر ليتزوج تلك الشابة التى أحبها خلال وجوده بمصر والتى كانت ضمن الجمعيات السرية التى تعمل فى فرق التمثيل وتدعمه بالأموال والسلاح ،لكنه قتل وضحى بنفسه وأحلامه من أجل أرضه ،وتلك الشابة التى اتخذت رغم إسلامها الرهبنة حياة لها آملة أن تلتقى به فى جنه الخلد مع الشهداء، معاناة سلبه لوطنه ،وقتل أمه أمام عينيه وجدته فى آخر أيامها تشدوا بأشعار الأجداد تنشد لجدران منزلها الذى تهدم وأرض أجدادها التى اغتصبت وأحفادها الذين عاشوا فى الأرض مشردين وآخرون قتلى فى أعمارهم الطفولية ،عن قوت غضبهم وترحيبهم بالموت كيف لأطفال لم يتعد أعمارهم خمسة عشرعاما أن يكونوا جبهات قتال للتضحية بأرواحهم من أجل الوطن ،كيف لأمهات تدفن بأيديهن شهداء وفى أرحامهن تحمل شهيدا منتظرا وهى تدرك ذلك؟!..

الليالى الكاهلة التى أنيرت بنور القمر والليالى التى لم يضىء فيها قمر بل صرخات من فقدوا حياتهم على يد العصابات وحياة الترحيل التى عانى منها الجميع نساء فقدن أولادهم وأزواجهم ومن يجدوا من الحياة بد فوجدوا فى الموت حياة ،فاتخذوا طريق الجهاد سبيلا .أناس فقدوا أسرهم و كل ما يملكون فى الحياة حتى ان عائلات قد أبيدت عن بكرة أبيها واختفت عن وجه الأرض بقتل أهلها واحداً تلو الآخر أو الموت فى مقبرة جماعية تحت سقف منزلهم ،قرى أصبحت خاوية على عروشها وأرض تحولت لمقابر حتى أن المقابر جرفت بما تحمله فى بطونها من اجساد أبنائها وألقى بهم فى قارعة الطريق لإمتلاك اليهود لها .لم يعد ذلك وطن بل مقبرة تبتلع كل من يصرخ عليها بصوت الحق .

قتل الكثير ممن أشعل الحنين قلبه للعودة إلى أرضه بعد بيع أرضهم بالإجبار ،البعض أراد أن يموت على الأرض التى ورثها من أجداده والبعض الآخر مازال يحمل مفتاح باب منزله وعقود إمتلاك أرضه التى أصبحت بلا فائدة على أمل العودة إليها ،أغصان زيتون محترقة وقصائد سلام بعثرة حروفها وكلماتها وحمام سلام إحترقت أجنحته فأصبح حمام حرب ،وأوطان تدافع عن العرض وأوطان تسعى للظلم وهتك العرض .

فى ذلك الوقت دشن الوطن العربى حياته أن تكون فلسطين ملك للعرب لا لطائفة أو ديانة بل العرب بجميع أجناسهم وأديانهم ودول تخشى على ميزان القوى فى العالم كبريطانيا ،فتبيد شعوب لتحيا شعوب أخرى ،رأيت فى دفاتر القدس أرض لم تر يوما سلاما ،يتمختر تاريخها بين السلم والحرب بين الإنصاف والخزى والعدل والظلم بين شرارة الحقد والكراهية وبين ينابيع الحب والتضحية من شعبها .

تيقنت فى تلك اللحظة أن تلك الأرض لن تحرر إلا من طفلاً غدا رجلا على أرضها رضع حبها من صدر أمه ورضع القوة من جفاء إخوانه وأدرك من تاريخه أنه ليس هناك قوة تستطيع جلب النصر إلا قوة ولدت من أرحام أمهات تلك الأرض ،إنتابتنى القشعريرة هل اليهود هم نسخ الشياطين على الأرض؟ أم أننا الشياطين أنفسهم؟؟ ،ليس كل اليهود مدعمين لبناء أرض بناء على ديانة ،فأنا أخشى أن يأتى اليوم الذى ينقسم فيه العالم إلى أوطان بناء على العقيدة أو اللغة أو الفكر الثقافى .

فى النهاية أدركت لماذا لا يمارس الحب معى فتلك تعد خيانة لوطنه وإغتصاباً له مع المغتصبين وإن كنت مكانه فأنا لا ألومه على ذلك الشعور من الكراهية المتقدة فى قلبة لكن سرعان ما انطفأت تلك الفكرة حين رأيت صورة مرسومة بيده فيها وجها نصفه المسجد الأقصى والنصف الآخر وجهى الطفولى حين كنت صغيرة ،ولكن تلك الرسمة أثارت فى قلبى ألم لم أشعر بمثله قط ،ألم الحب الذى كالبحرين لا يلتقيان ،هل رسم وطناً واحداً سنتقاسم فيه أم أنه رسم وطنا يريد أن أكون أنا جزء منه؟ ،لا أدرى لكن عزمت على الرحيل فى الصباح فلا أملك من ذلك الحب المحرم سوى ما أحمله فى قلبى من ذنب جنس لم أعبأ له بكيانى ولن أنال منه سوى ألم الرحيل والإشتياق .

تلك الكلمات المدونة بالدفتر اننا اليهود غدرنا بعهد موسى ووعده وكفرنا بمعجزاته بعدما رأيناها رؤية العين وآمنا بها ،لكن ما زال فينا طغيان فرعون وحاشيته حتى بعد الإيمان بل إهتز كيان حاشيته صارخين مما أحاط بهم من العذاب لكننا صرخنا كفراً بما آمنت به أعينا ولم تؤمن به قلوبنا ،هل أجمع ذلك الحب بصدرى وأرحل فى هدوء أم أن هناك خياراً آخر لا أدرى إن كان على إختياره أم التخلى عنه؟؟

فعاجلاً أم آجلاً لابد أن أعلن عن ذلك الحب للجميع فلا شئ يظل سراً للأبد ،شعرت بيومياته بين يدى كأننى أحمل ذكريات قلبه التى دونها بكل تفاصيلها ،كالذى أعدها خصيصاً ليسترجع تلك الذكريات أو ليخبرنى بها عند الإلتقاط ..فقد ظن أنى من أرض بلاده ولكنه لم يدرك أننى الداء الذى هتك عرضها ،أسرعت إلى الغرفة فوجدته يغط بنومه فألقيت بنفسى بجواره لعلها الليلة الأخيرة لى معه وما لحظات حتى تحسسنى بتلك اليدين الدافئتين وقبلنى وأكمل نومه محتضننى كالذى أدرك ما فى مكنونى من الهروب وأراد أن يتربص بى ليشبع صدره من

دفىء جسدى ،حملت نفسى فى الصباح ورحلت تاركة خلفى الحياة التى تمنيتها فليس كل ما نتمناه يكمن فيه الخير فربما كان شراً لو آتانا وأنا سأكون الشر الذى يدمر حياته عاجلاً أم آجلا ،رحلت دون كلمة وداع لكننى تركت رسالة دونت فيها قصتنا ."عزيزى نحن قدرين متناقضين لا يمكن لهما اللقاء أبداً ،نحن كالبحرين بينهما برزخ لا يبغيان لكنى سأظل أعشقك إلى آخر الأنفاس" ،وفى المساء عقدت العزم أن أعود أدراجى إلى المغرب أو أعود لتدريس اللغة العربية هنا فى المدارس الإسرائيلية وأنسى كل شىء كأنه لم يكن ،جلست بأحد الملاهى حيث الضحكات الصاخبة بليالى باريس الساحرة مُدت يدى إلى كأس النبيذ أمامى كدت أن أرتشفه فأوقفنى صوتا من خلفى قائلا

:يقولون بأن الرحيل مبكر هو أسوء أنواع الرحيل على الإطلاق حيث الرحيل دون أن تشبع العيون من بعضها البعض بالنظره الأخيرة ، نظرت إليه والدماء قد تجمعت بوجنتى مندهشة كيف عثر علي ؟!، لكنه جلس مبتسما متجاهلاً ما صدر منى بذلك الرحيل ،لكننى تدللت وأظهرت قوة شخصيتى فى رغبتى للرحيل فأنا امرأة لا تقهر كدت أن أرتشف كأسى فأمسك يدى قائلا

:وإن أخبرتك اننى أقبل بك الليلة بكل ما تحمله معانى الحب من معنى هل ستقبلين؟ ،إنهارت قلاعى التى شيدتها لمواجهة ذلك الحب وألقيت بأسهمى فى محراب حبه وفاضت عينى بالدموع أشار إلى أحدهم أن يشغل الموسيقى ثم مد يده إلى وسحبنى إلى صدره وبقوة إلتف ذراعه حول خصرى كالذى يخشى على طير حبه من الهجرة بعيداً ثم همست متسائلة

:ألا ترغب بى ؟

نظرت فى عينيه أقرأ جوابه منها ،فابتسمت عينيه قائلا

: أرغب بكل ما يحيط بك بالهواء الذى يشوبه رائحتك والتراب الذى ترسم عليه خطواتك أرغب بسمائك وليلك وكل دقيقه تمر بعمرك أرغب فى اقتنائها بين أحضانى أرغب بك بكل جوارحى وروحى لكنى لا أستطيع بتلك الطريقة التى تريدينها حتى وإن غلبنى عشقى لك وسرقت بعض قبلاتى لكن لا أستطيع سرقت شىء أثمن من ذلك ،وإلا سأكون قد حرقت كل شىء نقى فى حياتى ولوثت ذلك النهر النقى بشىء لا أقدر على تحمله أبداً .

:وهل ما يحدث بين العشاق سرقه؟ أنا أدعوها ممارسة العشق الذى يملأ أنفاسنا وأرواحنا

:وأنا أدعوها سرقة وإغتصاب أن خرجت خارج إطار شرعيته .

:شعرت للتو أننى عاهرة رُفضت من بين يدى قديس ،أشحت بوجهى عنه أخفى تلك الدموع اللامعة فى عينى لكنه ضمنى بقوة أكثر إليه وهمس لى قائلا

:هناك أمراً واحداً لأقبل بالخضوع فى ذلك العشق جسدا وروحا ..تزوجينى

نظرت اليه بعينى الدهشة تصلبت أوصالى فآخر ما كان يخطر بى أن يتزوجنى ظننت أننا سنعيش كرفيقين بالروح والجسد خارج هذا الإطار الذى لم يخطر ببالى لحظة ،قرأ بعينى ما خطر بعقلى فهمس لى

:لن أطلب منك تغيير ديانتك بل أطلب منك أنت تكونى زوجتى ..إنعقد لسانى وأصابنى الخوف ..الزواج بالنسبه لى مجازفه بكل شىء فى حياتى ،إن علم (جونس) بما يهواه قلبى هو شاب عربى فلسطينى مسلم وأن علم أبى أن وجودى بباريس أثمر عن حب ملعون سيكون نبذى من اليهوديه هو مصيرى ،كما أن عيون (ياسين) مليئة بحواجز نفسية يريد أن يتخطاها بعرض الزواج منى ،لكن كيف أن أتزوجه تحت تلك الضغوط التى أراها فى وجهه كل ليلة ،تركت يديه وذهبت إلى الطاوله ورأسى يتثاقل بما فيه من قرار لا أدرى كيف تغلغل فى عقلى ..نظر إلي فى قلق كاد يقلع قلبه فجأه نظرت إليه قائله

:لم أتخيل نفسى وأنا أرتدى فستان زفاف بين أحضانك ،لكن الزواج الآن فى وجود ذلك الحاجز النفسى بيننا سيكون قراراً خاطئا ..لا أدرى ما على فعله أحتاج إلى فترة أرتب فيها حياتى .

: أنت خائفه.

أقشعر جسدى عندما طرأت تلك الكلمة على أذنى ..فربما كان الخوف هو الشعور الحقيقى الذى ينمو بداخلى بجوار حبى له ،أمسك بأناملى الباردة بين كفيه قائلا

:لقد إنقضت مدة رحلتى الترفيهيه إلى باريس ،سأسافر بعد غد إلى بريطانيا...سأكتب لك ..ربما تستطيع تلك المسافات بيننا قتل ذلك الخوف الذى بأعماقك..سأترك لك دفترى لقد إكتفيت منه وأن دورك الآن .. لقد تركت لك منذ صغرى بضع أوراق لتكمليه ،وضع قبله على جبينى ثم رحل ،شعرت بأن هناك فجوة تتسع بداخلى يملؤها الخوف أكثر فاكثر فأسرعت إلى دفتره أستمد منه الشجاعة لأستمر فى مواجهة خوفى ..ما أن وصل لبريطانيا حتى وصلتنى رسالته تحمل بين طياتها أنغام الشعر الشرقى المخلوط بنسائم موسيقى الغرب ..مخلوطه بأنفاسه مع كل حرف كتبه وقوة ذلك الإشتياق بيننا راجية أن ينتهى ذلك الخوف بداخلى ،سنتان من الرسائل المتبادله أذابت كل ذرة من ثلج الخوف فى قلبى وأشعلت مكانها براكين من الحب ،يقال أن المسافات قد تنهى ما بين الأحبة لكن المسافات تشعل الأفئدة عشقاً ،وقد إشتعل قلبى بذلك الحب الفلسطينى المقدس ،أخفيت مكنونات الحب بين أضلعى حتى ذابت أضلعى شوقاً ،أشرق وجهى وإقبالى على الحياة أفصح أن هناك عشق ينمو بداخلى ،لاحظت كاميليا_رفيقتى ذلك التغيير الجذرى بداخلى وأمام إلحاحها المستمر،أخبرتها بما طرب أذنها ورقص له قلبها حينما علمت أن ذلك الوهج بداخلى هو حب لشخص آخر غير (جونس) التى تهيم به عشقاً .

شعرت بذلك الإطمئنان بقلبها ما أن سمعت ذلك ،لكن القلق تسلل بداخلى خوفاً أن تواجه مصيرا مشؤماً معه فقلبه يهوى غيرها ، وفى إحدى الأيام رنت أجراس الحب بأذن "كاميليا" فاعترفت بحبها "لجونس" لكنه رفض ذلك الحب معترفاً بمشاعره لى لكن كاميليا أفشت ذلك السر بيننا فأخبرته أننى أهيم عشقاً بشاب بريطانى يدرس الطب فى إحدى جامعات بريطانيا ،قد إلتقيت به صدفة أثناء رحلة مع أصدقائه فى باريس .

أدركت إفشاء كاميليا لذلك السر بينما كنت فى إحدى الحفلات التى لا تنتهى لجمع الأموال لدعم فقراء اليهود المنتقلين إلى فلسطين ،عندما أتى "جونس" بوجه غير الوجهة الذى

إعتدت على رؤيته متسائلا فى غضب عن صدق ما قالت له" كاميليا" ،فأخبرته الحقيقة لكنها حقيقة ذات إقناع يخفى حقيقة أعجز عن البوح بها ،فأخبرته أنى على علاقة بشاب بريطانى و لم أتجرأ على إخباره أنه شاب عربى فلسطينى مسلم ،فأنا أدرك تماما ما قد يفعله جونس إن علم الحقيقه فأقل ما يمكن فعله هو التحريض على إغتياله .. ورغم ذلك رأيت فى عينيه ذلك الألم الذى لم يستطع البوح به فشخصيته القوية تجعله ينظر إلى ضعفه الناتج عن حبه لى كشئ ينقص من رجولته فدائما ما كان يظهر حبه لى فى تلك اللحظات التى تتوارى فيها الأنظار بعيدا عنا ربما حبه لى لا يقل عن حبى لـ (ياسين) لكن روحه أخطات المسير إلى روحى ولا تألفها ،كان الإشتياق يقتلنى أريد أن أراه أو على الأقل سماع صوته لكن بينى وبينه أميالا ،لا أستطيع إخضاعها بصوتى لأخبره كم أشتاق إليه ،فقررت أن أسافرإلى بريطانيا لمقابلته لم يتخذ قرارى سوى أربعه وعشرين ساعة لتنفيذه رافقتنى (كاميليا) التى أرادت أن تتأكد من صدق وجود ذلك الشاب فى حياتى لم أعارضها بل أردت لها أيضا أن يطمئن قلبها وأن تجاهد لتفوز بقلب جونس لتعوضه عنى ،كلما اقتربت من بريطانيا كنت أتذكر كيف يمقتها بين دفاتره وفى أعماق قلبه كسياسه لكنه أحبها كدوله قوية وتمنى لو أن وطنه يصبح بقوتها..تذكرت معاناته فيها ليلتحق بكليه الطب وكيف رغم الصداقات التى كونها بها إلا أنه يحمل بين أضلعه رفاق وطنه الذى ودعهم واحداً تلو الآخر ،ما أن وضعت قدمى فى بريطانيا حتى إنتابتنى قشعريرة مرعبة خِفتُ أن يكون بأعماقى جبال من الخوف كامنة مطوية فى أعماق الحب داخلى ،تلك الأعماق التى أخشى أن لا أجد مقابل لها فى قلب (ياسين) ،ذهبنا إلى أحد الفنادق القريبة من الجامعة ليتيسر لى رؤيته وقتما يحلوا لى وأثناء ذلك حاولت "كاميليا" معرفة هوية ذلك الشاب واسمه إنتابنى الخوف قليلا عندما سألتنى عن اسمه فبمجرد سماعها له ستدرك الحقيقه ،لكنى أضعت مسار الحديث متسائله

:هل تظنين أننا سننجح فى بناء وطن لنا فى فلسطين؟؟

:بالطبع فالعرب الآن كتله مشتعلة لن يهتم أحد بتحرير أرض غير أرض ..أظن أننا سنبنى وطنا يهوديا لا يقهر أخيراً سيصبح لنا وطن ولكن أخبرينى ما هو وطنك الأصلى المغرب أم باريس أم نشأتك الأولى بمصر ؟

:عزيزتى بالنسبة لى ليس لليهود وطن محدد وهذا أمر مفرغ منه فكل الأرض هى ملكنا نحن شعب الله المختار ولنا الحق فى إمتلاك كل شبر على الأرض فهى خلقت لنا فباريس وشوارعها والمغرب وضواحيها وبريطانيا وطرقاتها ملك لنا نحن اليهود ،أما إستقرارى بالمغرب فتعلمين أن أسرتى لأمى تمتلك شركات متأصله من أجدادى فيها جذوراً متعمقه بجذورها ولا يمكن فصلهما عن بعضهما أبداً.

:هل تعتقدين أن العرب سيتعاونون معنا بعدما نبنى وطننا فى القدس ؟ أم أننا سنكون كضحية لمجموعة من الفهود العربية ؟

:عزيزتى سيأتى الوقت الذى لن ينظر فيه الحكام العرب للدين أو العرق أو الحضارة بل سينظرون فقط إلى الدين الجديد من الدراهم والفضة ليملؤن بها بطونهم على حساب أى شىء فى الوجود حتى على حساب دينهم ..وبما أننى درست الإقتصاد وأعمل كمدرسة للغة العربية

ولا علاقه بما درست بما أدرس فأنا أخبرك أن لا علاقة بين ما يعتنقه المسلمون وبين أفعالهم فى الحياة .

إبتسمت كاميليا بسخريه قائلة

: ليذهب الجميع إلى الجحيم ..لا يهمنى سوى أن يكون لى وطن أحتمى به من هول تلك الحياة ،تعجبت لكلامها والتفت إليها متسائلة

:ألم تكن المغرب وطنك التى احتميت فيه كما فعلت عائلتك من قبل ؟!، تعجبت كاميليا وشعرت من نظراتها أنها قد أخطأت فى حق تلك الأرض التى تفرعت منها جذورها .

فى الصباح الباكر تسللت من وراء كاميليا أثناء نومها وذهبت إلى الجامعة أبحث عن (ياسين) لكنى لم أستطع إيجاده فذهبت إلى سكن الطلبة الذى أخبرنى عنه فى رسائله بحثت عنه لكننى لم أجده ،تعجبت لماذا لا أستطيع إيجاده فى ذلك المكان الذى أخبرنى عنه؟! فذهبت مرة أخرى إلى الجامعة إستطعت العثور على أحد زملائه الذى أحبرنى أنه لم يره فى الجامعة منذ شهرين ...رددت بينى وبين نفسى ..شهرين! كيف ؟! إذاً من الذى قد أرسل لى ذلك الخطاب منذ عدة أيام قبل مجيئى إلى بريطانيا ؟! ذهبت إلى سكن الطلبة مجدداً فأخبرنى أحدهم أنه قد سافر لكن لا يعلم إلى أين؟

إنتابنى الخوف وأدركت أن هناك سر يخفيه عنى ،ذهبت إلى الفندق بعقل تتضارب به الأفكار التى أتمنى أن لا تكون حقيقه ،ما أن رأتنى "كاميليا" حتى عاتبتنى لخروجى مبكراً دون أيقاظها فهى تشتاق إلى رؤية ذلك الشاب كثيراً أخبرتها أننا سنزوره عن قريب لكن أولا علينا أخذ جوله فى بريطانيا والتمتع بأجوائها ،إقتنعت بكلامى سريعا لكنها لا تدرك حقيقة الأمر وذلك الضجيج بداخلى حول هوية ذلك الشخص الذى أرسل لى تلك الرسالة ؟ ،كل يوم كنت أذهب إلى الجامعة تارة وسكن الطلبة تارة أخرى لعلى أجد شئ يوصلنى إليه .

لكن فجأة رأيت ذلك الرجل الأربعينى الذى رافق ياسين فى السيارة بباريس ،أدركت أن هناك أمراً ما يربط ياسين به ،فرؤيته هنا مستحيل أن تكون محض من صدفة ،رأيته يأخذ بعض الاوراق من زملاء ياسين فأسرعت إليه وامسكته من ذراعه ،قرأت فى أتساع عينيه المندهشتين معرفته بى فسألته أليس أنت أحد أصدقاء ياسين؟ .. نظراتك تخبرنى أنك على معرفة جيدة بى ،إبتلع الرجل ريقه وزداد توتره على وجهه ثم حاول نزع ذراعه من بين يدى مشككا فى ذاكرتى فربما أخطات فى التشبيه بينه وبين رجلا آخر .

كانت يدى مازالت متشبثة به فأبعد يدى بلطف إبتسامة مصطنعه وهرول بعيدا ،اتبعت خطواته فإيمانى بأنه الخيط الذى سيوصلنى بـ (ياسين) لا شك فيه لكنه إختفى من أمامى بين السائرين كان الأرض قد انشقت وابتلعته ،أدركت حقيقة أننى فى مكيدة ما تحاك من خلفى وأن سفر (ياسين) إلى باريس ليس كما ادعى فى رحلة ترفيهية مع أصدقائه ،فمن الذى قد يسافر للترفيه فى باريس المشتعلة بالحروب والقذف الميدانى المستمر لها فى تلك السنه والعمل كنادل لمساعدة أحد أصدقائه الفرنسيين فى عمله فى ذلك الحفل؟؟ ،إتضحت أمامى أمور لم تشغلنى من قبل أو ربما لم اعير لها اهتمام .

مضى أسبوع وشكوك "كاميليا" تتزايد يوما بعد يوما تخبرنى نظراتها أن إدعائى بحب شاب بريطانى أحد المكائد التى أحيكها وأن قلبى مشتعلا بحب (جونس) الذى يشعل حبه قلبها ، فجأة طرق باب الفندق فرأيت خدمة الفندق تخبرنى أن أحداً ينتظرنى فى الأسفل ويطلب لقائى العاجل ،تعجبت من هذا الأمر من الذى قد يأتى إلى بريطانيا هنا ليطلب لقائى! ، خطر فى بالى أن يكون ذلك الرجل الأربعينى أو قد يكون (جونس) قد أتبعنا إلى هنا ،إرتديت ملابسى فى هرولة غير عابئه بتخمين كاميليا الذى يشوبه الإتهام بأن يكون ذلك الغريب هو ذلك الحبيب الذى أقابله فى الخفاء خوفا منه عليها ،ذهبت مسرعة وخلفى "كاميليا" التى تريد تأكيد شكوكها فجأة رأيت (ياسين) فانشرح صدرى وتنفست الصعداء لم أملك السيطره على تصرفاتى ففاضت الدموع من عينى وارتميت فى أحضانه كطفلة ترتمى بأحضان والدها الذى زاد غيابه وشوقه ،إلتفت ذراعاه حولى كالمشتاق الذى فقد الأمل فى اللقاء مجددا ثم أرسلت له الحياة خيطا من خيوطها فتمسك به طالبا النجاة ،لا أدرى كم من الوقت إستمر ذلك العناق بيننا لكننى شعرت برغبه فى النعاس بين أحضانه من دفء جسده الذى يشع حبا وأنفاسه الطيبة التى أوقفت ذلك الطوفان المتقد بعقلى وروحى وأعماق قلبى ،لم نفترق إلا بصوت "كاميليا" التى صاحت قائلة

:يا الهى لديك حبيب.. حقاً !! الآن قد صدقت كلامك ومدت يدها إليه تعرف نفسها فصافحها واضعا قبلة رقيقة على يدها ،شعرت بخفقان قلبها مطمئنة من رؤيته فقد تأكدت من حقيقة من أن الذى يسكن بقلبى شخص آخر ،كاد قلبى يتوقف من الخوف عندما سألته عن اسمه فأسرعت قائلة

: أنور

نظر ياسين متعجباً من إخفاء اسمه الحقيقى عنها فأخبرته نظراتى أننى لم أمتلك الشجاعه بعد لأخبر أحداً بحقيقة أمرنا ،أفصحت كاميليا عن إندهاشها عندما قالت متعجبه ..عربى؟! ألم تخبرينى أنه بريطانى ،فأخبرتها أنه عربى من جذور بريطانية ،أشعرنى إقتناعها بكلامى الاطمئنان بقلبى.

فى المساء ذهبنا إلى العشاء تحدثنا طويلا عما فعله ذلك الغياب ،وتلك المسافات التى زادت الشوق بيننا ،لكنه قاطعنى قائلا بأن المسافات قد فشلت فى إزالة ذلك الخوف بداخلى وربما زادته والدليل أننى لم أجرؤ على إخبار كاميليا عن اسمه وهويته الحقيقية ،شعرت بعجزى عن الرد ،تنفست الصعداء ثم هممت بسؤاله عن سر إختفائه وكيف علم بوجودى فى الفندق لكن قطع حبل أفكارى رؤية (جونس) أمامى بصحبه كاميليا إنتفضت متسمرة بنظراتى نحوهما وهما مقبلان علينا فى المطعم ،إلتفت (ياسين) إلى ذلك الشىء الذى جعلنى اتصرف بتلك الطريقه المفاجئة ،ما أن رأتنا كاميليا حتى أفصحت بضحكاتها عن ذلك السر التى لم تخبرنى به بأنها كانت ترسل لـ (جونس) رسائل تخبره بما نفعله هنا وبحقيقه ما إدعيته من وجود حبيب لى فى بريطانيا ،لم أدرك أن (جونس) قد يصل به الأمر ويجند كاميليا لحسابه ليعرف حقيقة ذلك الرجل الذى سرق قلب محبوبته منه ،فأدركت أن السرعه التى أتى بها إلى بريطانيا لن يفوت تلك الفرصة التى ينفرد بها بـ (ياسين) ليتخلص منه بطريقة ما ،وربما قد تصل لإغتياله ،فغيرت الحب فى قلبه قد تقوده إلى القتل ليخلوا له الطريق لقلبى ،كانت نظرات

جونس إلى ياسين يتخللها الغضب ينظر إليه بنظره متسائلة ما الذى يزيد فيه ليجعل قلبى ينبض له دونه؟ ،إلى جانب تلك الأسئله التى إنهالت على ياسين حتى شعرت أنه ضاق به الأمر فاقترحت على الجميع أن نذهب للرقص رفض جونس دعوه كاميليا للرقص متحججاً بإرهاق السفر بينما قبضت بيدى على يد ياسين مبتسمة إطلب منه أن يرقص معى .

رأيت فى عينيه تلك النظره الشارده فسالته لماذا الشرود؟ أخبرنى بما أنا على معرفة جيدة به .. ذلك لنزاع المتزايد بين الفلسطينين واليهود والهجرة الغير شرعية وقانون سحب الأراضى من أيدى الفلسطينيين بالإجبار والآن العالم على شفا هاويه يتآمر على ببناء وطن يهودى بإعتراف دولى ،عاد ذلك الشعور القاسى إلى قلبى بأنى عاهرة قد سلب بنى قومى وطنه وأنا أريد أن أسلب حياته ، فجأة سألنى عن قرارى حول الزواج به ؟ ، تخيلت فى تلك اللحظه أنه نسى أمر زواجنا لكن لسانى إنعقد عن الإجابه لا أدرى هل على الإستمرار فى الرفض أم على قبول ذلك الزواج المخيف بقلب قوى، فجأه أوقفنا تصفيق الحضور بعد إنتهاء الرقص ،كدنا أن نعود إلى موضعنا حتى أقترح مقدم الفرقه بالمطعم إستعراضه لرقصة (البوليرو) ويبحث عن ثنائى يؤديان تلك الرقصة ،نظرت إلى "ياسين" فأدرك رغبتى فى تلك الرقصة ذات الأصول المغربية ،ما أن بدأت الرقصة حتى شعرت أننى كشرارة إنطلقت من بين طيات الخوف وأمتلأ الحب بصدرى والشجاعة فى أن أعترف به أمام العالم كالمذنب الذى يهديه الله هديه رغم ذنبه وليكن حبك لى هو هديه الغفران ،وبانتهاء الرقصة إنطلقت إليه بقبلته حارة وبأنفاسى المتلاحقة أخبرته بموافقتى على الزواج منه بأسرع ما يمكن.

فجأة رأيت وجه لجونس لم أره من قبل ألا فى تلك اللحظه التى إنقض فيها على ياسين بالضرب لأنه تجرأ على تقبيلى ،فانقلب الحفل إلى صراع بيننا فى لحظه ،فوقفت صارخة بوجهه مهددة له أن مده يده على "ياسين" مرة أخرى فسأقتله ،لم أدرك أن فى هذا العالم وجها قبيح لى قد ظهر فى تلك الحاله التى تعجب منها "ياسين" وتصلبت فيها أوصال جونس أمامى ،الذى إنهال غضبه على من شغفى به وفى لحظه غضب تجرأت وأخبرته بحقيقة أمره أنه لا يدعى (أنور) بل (ياسين) وكونه فلسطينى عربى مسلم ،إنهار جونس وتراجع بخطواته للخلف كأن أقدامه لا تستطيع حمله بعد سماع الحقيقة ،وسرعان ما تحولت الحياة فى عينى إلى الجحيم ،عندما أخرج جونس مسدسا من يده ليقتل ياسين فأوقفته "كاميليا" مسرعه فانطلقت الرصاص فى الهواء بعيدا ،ثم عاد ووجه المسدس صوب ياسين مهددا لى ،إن لم آتى معه فسيقتله فى الحال أمام عينى ،شعرت أننى مسلوبه الاراده ضعيفة لا أستطيع حماية ذلك الحب الذى عشت عليه ،وقفت مسلوبه الارادة فقبض جونس على ذراعى بقوة شعرت فيها بتمزق عظامى بين أنامله ورحلت مجبرة كسجينة إلى مصر فى منزلنا القديم .

بدأ ذلك الصراع بينى وبين أبى ساخطا وتغلى الدماء فى عروقه صارخا متهما لى بجميع أنواع الخيانه . خيانة دينى والكفر به وخيانة الوطن الذى يسعى فى بنائه ،صرخت بوجه متمردة على تلك القيود الصهيونيه التى يقيد بها حريتى فى الحياة قائله

:العرب لم ينهبونا ولم يسرقوا منا شيئا ،نحن الذين نحاول سرقتهم منذ الجذور المتأصله فينا حاربنا الكنعانيين ولم نتوحد على كلمه واحدة إنقسمنا إلى مملكتين ضعيفتين تترعرع الخيانه بجذورها حتى أرسل الله من أبادهم عن بكرة أبيها .أتبحث عن تاريخ غابر لم يتعدى الألف

عام بدأ وانتهى منذ ملايين السنين ..نحن لا أرض لنا نحن مغتصبون أتفهم،نحن السارقون تعارض الحاخام لتلك الدوله يثبت أننا نبنى دولة باطلة على جذور تاريخية باطلة على أرض حق وسوفت تهوى الأرض الحق على ذلك الباطل فتبيده عن بكره أبيها ،ذلك الفلسطينى الذى إغتصبنا أرضه وعرضه ونُوشك أن نسرق تاريخه وديانته لا أظن أن شرفه يسمح له أن يتزوج فتاة يهودية من جذور يهودية أباها رجلا ذو فكر صهيونى لا يهمه فى الحياة سوى المال والسلطة وتدعيم هؤلاء القتله الذين قتلوا أسرته وأخواته واحد تلو الآخر وأسس تلك العصابات الغير شرعية لقتل كل عربى على أرض فلسطين حتى انه بدأ يشارك فى تحريف التوراة ليزعم بأن قتل كل عربى بيد يهوديه هى تقربا إلى الله ،الذى يلعنا ويمهد الارض لنا ليقضى علينا ،تلك الأرض هى ساحة المعركة الأخيرة التى سندفن فيها كحثالة تحت أقدام أهلها العرب ،فجأة هوت يده على وجهى منهالا على بجميع اللعنات والدعوات رأيت فى إنهياره وارتعاش جسده خوفا من تلك الحقيقة التى أفصحت عنها كأنها السر المكنون الذى يخفيه بينه وبين نفسه ،وكأنه قد شاهد تلك النهاية لذلك الوطن الذى يسعى إليه بأم عينيه للتو ،استغليت تلك الحالة التى إنهار فيها هربت بسرعه أبحث عن أقرب وسيلة أسافر بها إلى المغرب حيث أمى التى تمتلك القوة فى حمايتى من نواياه الخبيثه وأفكاره المتعارضة مع أفكاره فكانا زوجين متنازعين فى حرب حول أصلولهم اليهوديه وإلى أين أرض ينتموا ..أمى التى تؤيد أن أعيش حياتى كما يحلو لى فإيمانها بأن الأرض التى نشأت عليها هى أرضها مهما كانت بعكس والدى الذى يؤمن أن فلسطين أرضنا سرقها الكنعانيون منا ،ذهبت إلى المغرب وقد قصصت الأمر عليها منذ اللحظات الأولى التى إلتقينا فيها بمصر إلى تلك اللحظة التى طلب فيها الزواج منى ،إحتارت أمى فى حسم ذلك الأمر وتركت الخيار الأخير لى فاقترحت أن أذهب إلى مدينة (إفران) حيث الجبال الثلجية كأنها قطعة من أوروبا والمناظر الخلابة لتهدأ عقلى وأفكر بهدوء فى ذلك القرار الذى اتخذته بزواجى من "ياسين" ،كنت أتزلج على تلك الجبال والغضب يذيب الثلوج من حولى من يملك القوه على حرمانى مما أريد فى حياتى لقد خلقت حرة لا يهمنى وطن أو ديانه فربما لو علم "ياسين" ان ابى ممن شاركوا فى قتل اسرته لترك فكره زواجه منى ،إزداد خوفى عندما طرأ باذنى تهديد جونس بقتل ياسين ،عدت الى امى ابلغها بقرارى الاخير وهو الزواج من ياسين فأخبرتنى أن من الغد ستحجز لى مكان على السفينة المتجهة لبريطانيا لانطلق بالزواج من ذلك الشاب وأن لا أعود إلى المغرب خوفا من بطش أبى وسيكون الرابط بيننا هى تلك الرسائل المحمله بما لا يبوح به اللسان ،ثم اهدتنى سواراً حول معصمى هدية زفافى وأخذت الوعد منى ألا أنزعه أبداً وأقبله عندما أشتاق إليها ،وقدمت لى (فيرنا) إبنة مدبرة المنزل منذ أن كنا بمصر لم أعهدها كخادمة بل كظل أحبنى بدون مقابل ،مضى يومين ووجدت نفسى اقفت أمام الميناء بالمغرب أستعد للرحيل على تلك الباخرة المتجة لبريطانيا لكن المفأجاه أننى رأيت من ينتظرنى هناك بعينين ثاقبيتين ما أن وقعت عينى عليهما حتى تسمرتان لا أصدق ما تراه عينى..كانت أمى تعطى لى نصائحها إلا أن لاحظت شرودى ونظراتى المتسمر فى ذلك الإتجاه حيث يقف من خطف أنفاسى من صدرى التفتت ناظرة إليه فأدركت من يكون ،قطعت إبتسامته لى ذلك الشك بأن من يقف أمامى هو "ياسين" وليس رجلا شبيها له ،تقدم نحوى فى ثبات رجولى شعرت أننى لم أعشق رجلا كباقى الرجال بل رجلا تخطى حدود الرجال كلما اقترب منى كلما إزدادت إبتسامتى فرحا لا أصدق أنه هنا فى المغرب ،إقتربنا حتى اصبحت أنفاسنا متلاصقة فجأة

تجرأت أمام الجميع وقبلته بإشتياق شعر بالحرج للحظات من نظرات أمى وفيرنا بعينيهم الدامعة فرحا ثم سألته

: لم أتخيل أن أراك هنا!.

: ليس لى مكان فى الدنيا إلا بك فى كل أرض تخطوها هى أرضى..كما أننى قد قضيت بعض الوقت هنا فى المغرب أيضا منذ صغرى ،أداعب شمس المغرب وأمرح بثلجها ورائحة النرجس الذى يشع بأراضيها ،لم يثيرنى التعجب أنه يمتلك ما أمتلك من ذكريات للمغرب فنحن لم نكن روحين بل روحه إنقسمت لشقين فى جسدين كتب الله لهما اللقاء معا..

إصطحبتنا أمى إلى منزلنا أحبت "ياسين" منذ الوهله الأولى حتى أنها أخذت عليه العهد أن يحافظ على وأن يتمم الزواج بى ببركه دعائها فهى لن تستطيع حضور الزفاف لخوفها أن يتبعها أحدهم وينهى تلك الحياة التى نسعى لبداها ،أعطته خاتما فضيا هديه زفاف له أيضا، ودعتنا بقبلاتها ودعواتها وتدعيمها لنا إلى آخر الانفاس ثم طلبت من ياسين أن يعقد زواجه باقرب وقت ،إصطحبنى أنا وفيرنا إلى منزلا بالمغرب يبتعد كثيراً عن منزلنا بسفر إستمر يومين بالسيارة ما أن وصلت حتى أثارت دهشتى ،ما رأيت فى ذلك المكان فلسطينيين مهاجرين إلى المغرب تحت وطأ القهر،وقفت بشرفه المنزل أنظر إلى أحوالهم وضحكاتهم وأعدادهم لحفل الزفاف ،فجأة إلتفت يده من خلفى حول خصرى فارتميت فى حضنه قائله وعيناها مازالت تنظر للخارخ

:لم أعلم أن بالمغرب فلسطينين هاجروا إليها؟ أشعر أنهم كالغرباء لا يشبهون المغرب

:إنهم "كطائر التُّمِير" مهما غير مكانه أو لونه سيظل محتفظا بهويته الفلسطينيه ؛لذا بوجودك بينهم ستشعرين أنك بفلسطين الحبيبة.

تخللت أنفاسه بعنقى فابتسمت قائله

:انت كالتمير حقا.

فجأه مد يده لى بوردة بعدما قبلها قائلا

:أنت أجمل من بساتين الشرق ،أخذتها منه وأنا أردد كلمات قائله

:أزين نفسى بكلماتك مدحك وأكحل عينى برؤيتك وأورد وجنتاى بابتسامتك فتحمر خجلا..أتمختر فى خطواتى بعشقك وألف حول جسدى درع بحضنك يحمينى وأرتشف من أنفاسك الحياة ومن شفتيك العشق ومن صوتك ألحان وأشعار لقلبى وأدفء صدرى بقربك منى واخفض راياتى حينما ترتفع راياتك ولا أدرى فى نفسى ضعف ولا هزل فى ظلالك ..فلا تقطف الورد للورد فأنا أغار عليك من رحيقها فرحيق ثغرى يفوق آلالف الورود ولا تبحث فى جنان الورد عن جمال فقلبى جنه أُنزل فيها الحب من أجلك ولا تلتمس من الشمس دفء فأحضانى مأواك من برد البعد ولا تلقى بنظرك عنى فقد وضعت تاج عشقك على عرش محبتى فلتحكم عرشك كما شئت ....إقترب من عنقى وقبلنى فأتبعت قائله

: لقد سمعت ترانيم الحب تداعب أذنى وقلبى شوقا فى أثناء غيابك كان الحب يزداد لهيبه فى قلبى حتى أصبحت لا أقدر على البعد عنك ،لكنك مازلت شخصية غامضة بالنسبة لى أشعر أنك كمحيط لا نهايه له ، ظننت أنى سأكتشف أسرارك المكنونة بذلك المحيط العميق داخلك حين قرأت يومياتك وتلك الفترات القاسية شعرت أنك كتبت بيديك حديث لسانك المسلوب الذى يقص تلك الأيام المريرة التى مررت بها لكن لم انظر فقط إلى ذلك الصراع الذى عانيته فقط . بل رأيت بين سطور كلماتك معاناة أشخاص أذابوا قلبى حزنا رأيت بين سطورك دماء مخضبة وأبحر من الحزن تروى أراضيك فشعرت أن العالم مليئ بالظلمات رأيت جذور طاهرة تدنس بجلباب أسود وترانيم يهودية على أرض مقدسة وكأنى أرى أحدهم يخضب السندس الأخضر بسواد جلباب اليهود ا.

إلتفت إليه فرأيت عينيه هائمتين كأنه يرى تلك الذكريات أمام عينيه للتو، وقد ترك عقله هناك فرأيت فى عينيه الواسعتين محيطا مظلما وهدوء ملامحه التى تخفى تلك العاصفة التى لن تثور، ذلك الثائر الصامت لم ينتبه لى وأنا أتامل وجهه وعزلته عن الواقع فاعدته إلى عالمى بقبله إرتشفت فيها الحب من شفتيه ،رغم ذلك العشق فى عينيه وتقبله لذلك الحب الغير مقدس دون أن يعبأ لذلك النضال الذى قضى فيه عمره ، لكن قلبى كان يحدثنى أن هناك شيئا ما يخفيه خلف ذلك الحب شيئا يشبه الزلزال الذى سيسقط عرش ذلك الحب بيننا ويضيع معه كل شىء كنه لم يكن ،ما أن إبتسم حتى تلاشت تلك الأفكار وتغلغلت لمساتى بصدره أغرى ذلك الفارس بحبى وضعت يداى الدافئتين على وجهه التصقت أعيننا ببعضها ففهم ذلك الشغف المشتغل بداخلى واشتياقى لإرتشاف الحب من شفتيه التى أقتحمتهما بقبله طويلة ..حاول التراجع برأسه للخلف فاحتضنت رأسه بكفى وجذبته بقوة إلىَّ ،وماهى الا لحظات حتى إنزلق بمشاعره بين شفتاى تزايد الإشتياق لروحه التى عشقتها فاسرعت يداى بنزع ثيابه كلما تراجع للخلف كلما ذبته بقوتى إليه فتلك العاصفه المشتعله بداخلى لن تهدأ إلا بعشقه ،تراجع بخطواته حتى سقط على الأريكة فألقيت بنفسى عليه أنزع قميصه فجأة أمسك يداى بقوه وانفاسه متلاحقه كالذى يلهث فى ماراثون الحب ..إبتلع ريقه فى رغبة ملحة كان الخوف هو الغالب عليه قائلا

:ماهى إلا ساعات قليلة ويبزغ فجر على أجمل يوم .يوم عرسنا ، رفعت جسدى عنه عاقده حاجبى فى غضب قائله

: لمرة أخرى أشعر أنى عاهرة تلتمس الحب المقدس بين يدى ناسك ويتم رفضها ،إنتفض يضمنى بين أحضانه قائلا

:بل ناسك فى حرم الحب ينتظر الصلاوات الطاهره ليبارك حبنا.

فى الصباح كانت الحياة غير التى أعهدها ترانيم أُخوة ومحبة تسيطر على الجميع ، تلك المرأة التى آوته فى منزلها حين كان صغيراً مصابا إتخذ منها أُمَّاً له لم يستطع تركها فى فلسطين بعدما قتل زوجها تحت حطام المسجد وهدم منزلها وأخذ بالإجبار فأحضرها هنا إلى المغرب ،إتخذت منه ابنا عوضا عن أبنائها التى فقدتهم فى تلك المجازر واتخذ منها أما عوضا عن أمه التى ماتت دون أن يدرى أين ومتى كان موتها؟ ، أخذتنى من يدى إلى غرفه

بمنزلها تجهزنى لعرسى وهى تخبرنى أن أناديها بأمى أو العمه (خضرة) كما أحب ، وجدت فيها فرحة أمى التى لا استطيع رؤيتها يوم زفافى فابتسمت قائلة سانناديها بالعمة خضرة، ربتت على يدى وأحضرت لى ثوب زفاف أبيض طرز خصيصا من أجلى على يدها ما أن إرتديت الثوب حتى فاضت عينيها بالدموع قائله

:ليزيدك الله السعادة على هذا الحسن.

فجأة طرق الباب فإذا بإحدى النساء تحضر فى يدها حناء وقامت بتخضيب يدى اليمنى بالحناء ثم وضعت عمله معدنية وقامت بربطها برباط خفيف قائله

:هذا ليكتب العمار بينكم والطهارة من رجس شيطان يمكر على حياتكما ثم أعطتنى حجابا وطلبت منى أن أضعه فى صدرى تعجبت من ذلك فابتسمت قائلة

:هذا لحمايتك ألا يصيبك مكروه لا تتركيه فقد قام الشيخ بعقده لك بسر آيات القرآن الكريم وسر ملائكة الكلمات ، تعجبت من كلماتها لكنها أثارت القشعريرة فى جسدى ،أخذته منها العمة خضرة وعقدته لى فى صدرى مربته على كتفى تومأ لى برأسها أن أؤمن بما قيل .. جلسنا جميعا خلف الباب نسمع الفاتحه وعقد القرآن وما أن أنتهى حتى أنطلقت الزغاريد مداوية تشعل تلك الفرحة بداخلى ...شعرت أننى كنت الغارقه فى محيط مضطرب بحياة مضطربه وقد اتى من أنقذنى إلى شاطئ الأمان لكن قلبى المضطرب كان يقلقنى كثيرة رغم تلك الفرحة لكن لم استطيع إخفاء براثن من الخوف المتغلغة فى صدرى لا أعلم لماذا؟!

جاءت إحداهن ووضعت على وجهى وشاحا أبيض مطرز تفوح منه رائحه الياسمين والفل ثم خرجت إليه أسرعت إليه العمة خضره تحضن كفه فلاحظت ذلك البروده فى يديه فدلكت كفيه بكفيها مهنأ له بذلك الزواج المبارك ، من بين ثنايا الوشاح لاحظت تلك الفرحه الغائبه منذ أن إلتقينا تتجسد فى عينيه كان وطنه قد تحرر للتو ،كانت ضربات قلوبنا تدق مع الطبول فرحه كلما خطونا بالإقتراب من بعضنا والنظرات تحكى قصة صمت اللسان عن البوح بها قائله

:طل من الباب قمر بثوب القمر عجز الوشاح عن إخفاء ملامحها الملائكة، رفع الوشاح عن وجهى فشعرت بانفاسه منبهرة قائلا

: لا أدرى أن ذلك فى العالم جمالين أحدهما فى وطنى والأخر أنت، أقشعر جسدى لكلماته ختم حديثه بقبله على جبينى ،أدفئت كفه المثلج المرتعش حبا بين أحضان أصابعى الملتهبه بحبه ، كلا منا يعلم لغه تلك الأنامل وذلك الشعور حيث تتحدث اجسادنا بلغه لا يفهما الآخرين وسط الزغاريد والتهنيئات وصوت الطبول التى تداعب عشقنا ،دخلنا المنزل وسط دعوات العمه خضره والورد الذى يتطاير فوقنا ودعواتها أن يحمينا الله من عين الحسود وأنفاس الشياطين ثم أنهت ذلك بقبولاتها المتبادله بينى وبينها وبين ياسين،ما أن أغلق الباب حتى إقترب منى قائلا

:لا أصدق أنك أصبحتى زوجتى ،كدت أن أجيبه حتى إندفع مقبلا لى فى لهفة وشوق ،فى تلك الليله إنفجرت الثورة التى كبحها بأعماقه ،فى تلك الليله رأيت القديس يتحول إلى مرجل من مراجل العشق فلا سلطه أعلى قوة على القلب من قوه الحب ،إنطلق طوفان العشق المكنون

بداخله وأفصح سجين الحب لسجانه عن عشقه بحريه ،كنا فى ثورة متأججه بيننا لكنها كانت ثورة عشق، أيقظنى أذان الفجر تحسسته بجوارى لكننى لم أجده فأدركت أنه قد ذهب إلى الصلاة نهضت إلى الشرفة اتنفس ذلك النسيم الفجرى الذى يحمل أنفاس الموحدين الطاهره الذين لا يثقلهم نفاق الدنيا وكسل الأبدان ،أستمعت إلى الصلاة وتلاوة القرآن كأننى أسمعه لأول مرة أردد خلفه ندائه إلى الصلاة أغمضت عينى أستمع إلى القرآن فوجدت ذاتى فى حروفه حتى امتزجت أنفاسى بأنفاس المصلين وطرب لها قلبى فتمختر رأسى كالفقى مع كل آيه تقرأ ، كصوفية وقعت فى عشق آيات القرآن الكريم ، إنطلقت أصوات طيور الشروق مع نسمه بارده أرعشت قلبى لكن أدفئته ذراعيه اللذان إلتفتا حول جسدى فألقيت بنفسى فى أحضانه الدافئة تلذذت بأنفاسه الملاصقة وشفاهه التى ترتشف القبلات بعنقى فردد لسانى قائلا

:نحب أشخاص ولا نعرف السبب الواضح لمحبتنا لهم نعلم فقط أننا بنحبهم يلتصقون بالذكريات ولا نستطيع محوهم إلى الأبد قد تجمعنا معهم كلمات لكن نظراتنا تكون أبلغ الحديث وقد لا نعرف أسماء بعضنا لكننا حفظنا الوجوه عن ظهر قلب ،وقد كنت أنت ممكن أحبهم قلبى دون أن يعلم السبب فقط أعلم أننى أهيم فيك عشقا من طفولتى وكأننى حينها أذنبت ذنباً لا يغتفر ففتحت لك أبواب قلبى على مصرعيها وأغلقتها بعد رحيلك بأقفال لم يصنع لها مفتاح حتى أتيت وفتحت لك أبواب ذلك القلب برؤيتك ،قبلنى مستمعا قائلا

:البدايه دائما تعجب العقل لكن النهايه ترعش القلب ،لكنك أرعشت القلب حبا منذ البدايه ولا نهايه لك ،أتدرين حين رأيتك فى ذاك لوقت ألقيت السلام والأمان على قلبى بنظره من عينيك لكننى لم أدرك كيف أرتشف قلبى الأمان والسلام منك وأنا لم أعرف من أنت بعد ، كنت أحلم دائما بالجنة أتساءل متى أستشهد حتى أدخل الجنة؟ كنت أحلم بالجنة لكننى لم أدرك أن فى الأرض جنة يحتفظ الله بها لعبادة وقد كنتى أنت جنة الله على الأرض خلقها الله لى لأكمل حياتى معها ،إنقبض قلبى فجأة بعد سماع تلك الكلمات فالتفت إليه واحتضنته بقوة فى خوف إدرك ذلك الخوف فاحتضننى بذراعية متسائلاً عن الأمر الذى أرعبنى إلى هذا الحد ؛ فأخبرته أمنيتى الوحيدة التى أتمنى من الله أن يحققها لى حتى وأن لم يقبل منى دعاء بعده قط أن لا أحرم من حضنك الدافئ الذى أرى فيه أحضان أم دافئة تغفو فيه بعد لحظات كأنه الأمان الوحيد فى ذلك العالم الملتهب ،ربت على كتفى قائلا

:أرح رأسك على كتفى فأنت الآن فى حرم الحب الذى لا خوف فيه ولا حزن

كلماته لم تزد قلبى إطمئنان لكننى تظاهرت بالأمان ثم همس بأذنى أننا سنقضى أيام من شهر العسل فى مصر حيث ملتقى الأحبه على ذلك المكان الذى جمع قلبين ثم إلى بريطانيا لنستقر هناك من أجل أستكمال دراسته بالطب تعجبت من ذلك فقد كانت خطتنا أن نذهب إلى فلسطين لكن الأوضاع كانت ملتهبه إلى أبعد الحدود.

عام ١٩٤٦

زاد النزاع بين العرب واليهود وزاد أنقسام العالم حول أى هوية ستصبح عليها الأرض أهوية يهودية والنظر إلى عرب فلسطين كضيوف أم أن الأرض تنقسم بينهم والغلبة لمن يمتلك القوة فلا حق فى قانون الشعوب ،سافرنا إلى مصر نودع كل شبر على أرضها قبل إستقرارنا ببريطانيا ،وسرعان ما ذهبنا إلى بريطانيا ،بدأت الراحة تدب بقلبى بعدما توهج شبح الخوف به عندما لمحت أحد الرجال يتتبع خطواتنا بمصر خشيت أن يكون من جواسيس أبى أو من العصابات التى تغتال الفلسطينيين ،شعرت بالإرتياح قليلاً عندما وضعنا اقدامنا بالباخرة راحلين عن مصر تنفست الصعداء لعلها هواجس الخوف الذى أحمله بأعماقى ،همس لى ياسين قائلا أنه دبر لى مفاجأة جميلة ببريطانيا أخفيت خوفى بأبتسامتى وقبلاتى له وحاولت تجاهل ذلك الخوف ،أصطحبنى أنا و"فيرنا" السر الكامن لى بعد أن وضعتنى أمى فى عهدتها لتحمينى والأحتفاظ بسر زواجى .

تفاجأنا بهديته لقد كان منزلا فخما رائعا للغاية لم أتوقع أنه بإستطاعته تدبير ذلك المنزل الرائع الذى وقفت أتامل جماله من الخارج حتى أنه أبتسم وذهب لفتح الباب ثم سحبنى من يدى إلى الداخل وعيناى مازالت متسمرة على المنزل من الخارج ،شعرت بذلك الدفء ما أن دخل المنزل حتى ترأى فى عينى كمملكة لن تسقط أبداً كل خليه فى جسدى شعرت بأمان لا خوف فيه .

أفصحت "فيرنا" عن جمال المنزل بإبتسامتها الرقيقه وأمنياتها بأن نعيش جميعا سعداء ، مضت سته أشهر مليئة بأروع صور العشق حتى لاحظت "فيرنا" شيئاً غريباً يحدث يومياً ليل نهار أمام منزلنا حيث يتناوب رجلان مراقبه المنزل أحدهم بالنهار وآخر ليلا ،أكدت شكوكى بأن ما رأيته فى مصر لم تكن هواجس بل حقيقة إنتفضت تاركاً فنجان القهوة ونظرت من خلف الستار عن شكل ذلك الرجل كان رجلا مختلف لم أره من قبل ،جلست بجوار الشباك حتى حل الليل لأرى وجه ذلك الرجل الذى يتناوب المراقبة ليلا فجأة اضطرب قلبى وحبست الأنفاس فى صدرى لقد كان نفس الرجل الذى يراقبنا بمصر..مستحيل أنه إتبعنا إلى هنا على نفس الباخره إلى بريطانيا ..ولكن مهملا ربما تلك المدة كان يحاول الوصول إلى مستقرنا فى بريطانيا وقد علمه عن قريب ، أمرت فيرنا ألا تخبر "ياسين" عن ما يحدث ، وفى الصباح خرج ياسين إلى الجامعة فلاحظت أن أحدهم يتبعه...أرديت ملابسى بسرعة ولحقت به فى الجامعة حتى بدأ عليه الإندهاش من أمرى لكنى تحججت بإشتياقى له والرغبة فى قضاء ذلك اليوم معه بالجامعة...ذلك اليوم إلتقط أحد الأصدقاء صورة لنا ،كانت أول صورة نلتقطها معا ،فمن المؤسف أننا لم نلتقط صور لزفافنا فى ذلك الوقت معا ،لكن خوفى أنسانى أن نتعانق فيها فاكتفينا بالتقارب من بعضنا لبعض ،عدنا للمنزل وعيناى تراقبان الطريق فلمحت ذلك الرجل من مصر يلاحقنا إلى المنزل ،أدركت أن الأمر لا علاقه له بى وان هناك أمر خفى حول "ياسين" يخفيه عنى ، ليجعله تحت المراقبة ليلاً نهار من قبل هذين الرجلين ولكن لا أدرى ما هو؟! ...ما الذى تخفيه عنى يارفيق روحى؟ ،تحولت إلى حارس ليلى يستيقظ من نومه العميق يترقب أن يحدث شيئاً مخيفاً لا أتحمل عقباه...كلما إستيقظت أنظر من بين ثنايا شرفتى أراقب تناوب الرجلين ليلا ،لاحظت أن "فيرنا" مستيقظة كالحارس إلى ينتظر من الجانى أن ينقض عليه ليقتله كانت هيبتها وهى تتربص بالرجلين ليل نهار تثير فى قلبى الخوف فهناك أيضا أمر ما تخفيه عنى ، أردت أن أواجهها فى إحدى الليالى المرعبة كان الجو ممطر

ومرعداً تسللت بخفة خلفها لكنها سمعت وطأ أقدامى بحرفيه شديدة فالتفتت إلى تصلبت أوصالى عندما إكتشفت أمرى فأبتسمت مطمأنه لى ثم عادت النظرات المتصلبة إلى وجهها مرة أخرى ،ومُحيَت تلك الإبتسامه وهى تراقب الرجلين من خلف الستار ،سألتها ما تفسير ما يحدث لذلك الأمر ؟ تنهددت فى حيرة قائلة أنها تشك فى أمر ما لكن عليا التأكد منه فى الصباح ،إنتظرت أن تكمل حديثها لكنها أثرت الصمت نظرت إلى الرجلين الذان توتران وهما ينظران بإتجاه غرفة المكتب الذى إطفأة نوره للتو ،نظرت فيرنا قائله

:ليس علينا التأكد فى الصباح فقد تأكدنا الآن...إنهما متربصان بـ الطبيب ياسين، أجل..لكن لماذا؟!، نظرنا إلى بعضنا البعض بعدما خطر بعقلنا نفس الفكرة ..إنهما ربما يخططان لإغتياله .

أسرعت راكضه إلى غرفة المكتب ففوجئ "ياسين" من إلقاء نفسى بأحضانه ما أن خرج من غرفة المكتب متسائلاً عن الأمر ،لكن بكائى وأرتعاش جسدى أعجزنى أن أبوح بالأمر ،فأخبرته "فيرنا" أنه راودنى كابوس مزعج ،إنزعج من الأمر وضمنى بين أحضانه مقبلاً رأسى التى تعانق صدره ثم إتجهنا إلى غرفتنا ،لم يتِح له فرصة للإبتعاد عنى حتى غفوت وأنا متشبسه بأحضانه ،فجأة...أستيقظت متنفضة عندما لم أجده بجانبى ركضت حافية القدمين بين أرجاء المنزل أبحث عنه فأوقفتنى "فيرنا" وبيدها بعض الأوراق أمام غرفة المكتب قائلة

:سيدتى عليك أن ترى ذلك ،تجمدت الدماء فى أوردتى ما الذى رأته "فيرنا" ليجعل وجهها متصلبة مخطوفاً كهذا تقف أمام غرفة المكتب دون حراك؟! ،لا بد أن هذين الرجلين قد نجحا فى مهمتهما ..فأسرعت إلى غرفه المكتب مهرولة...ثم تسمرت مكانى عندما رأيت غرف المكتب رأساً على عقب...نظرت فى أرجائها أتساءل ما الذى حدث ومن الذى فعل ذلك وتلك الدماء المبعثرة على الأوراق فى كل مكان...إلتفت إلى "فيرنا" بعينين متسائلتين فأشارت إلى المكتب حيث الكرسى متجهاً نحو الشرف المطلة على الحديقة إقتربت من الكرسى وكل خلية فى جسدى تنتفض رعبا مدت يدى المرتعشة إلى الكرسى حاولت السيطرة على بكائى الذى إندفع عندما رأيت يدا من بين ثنايا الكرسى ملطخه بالدماء، أعرف جيداً لمن هذه اليد ما أن لمست الكرسى حتى ألتفت صوبى كاشفاً عن جثة "ياسين" غارقا فى دمائه توالت صرخاتى حتى سمعها كل ركن فى المنزل فجأة وجدت من يضمنى بين أحضانه يهدأ من روعى فإذا بى بين أحضان "ياسين" فى الفراش ،تحسست وجهه وجسده لا أصدق أنه أمامى إذاً ما الذى رأيته للتو؟! ، مد يده لى بكوب ماء ساعدنى على إرتشاف بعض قطراته ثم ضمنى إلى أحضانه قائلا لا تخافى أنه مجرد كابوس..لم أتمالك السيطرة على دموعى المنهمرة التى إنطفات سريعا بنومى فى أحضانه ..أستيقظت على صوت "فيرنا" تضع صنية طعام على المنضدة بالجوار تحثنى على الإستيقاظ فقد غفوت أى أنه حان وقت تناول العشاء ،سألتها فى إرهاق عن "ياسين" فأخبرتنى أنه يدرس فى المكتبة وقد أمرها أن ترسل لى العشاء ،وقفت بجوار الشرقة أبحث بنظرى من خلف الستارة عن الرجل لكنى لم أجده..فجأة أخبرتنى "فيرنا" وهى تسكب فنجان من القهوة أنهم قد رحلا معا الآن ربما يتناوبان مع رجلين أخرين أو هناك شىء طارئ جعلهما يغادران ،اخبرتها أن قلبى لا يطمأن لهذا الأمر .

نزلت إلى غرفة المكتب لكننى لاحظت شئ مريب بين ثنايا نظرات "ياسين" ،فوجدته مقضباً الجبين متوتراً حتى تحول توتره إلى غضباً يطرق المكتب بيديه بأنفاس مضطربة ابتعدت خطوات من غرفه المكتب ثم ناديته فسمعت حركة مضطربة فى المكتب فأسرعت إلى الداخل فرأيته واقفا متوتراً مضطرباً الأنفاس ما أن رآنى حتى وضع قناع من الإبتسامه على وجهه ،أخبرته أننى أعدت حمام دافئ له يساعده على الإرتخاء قليلا ،أصطحبته إلى الحمام ثم تركته يستمتع بحمامه وأسرعت إلى غرفة المكتب أبحث عن تلك الاوراق التى اخفاها عنى ..تذكرت اننى لمحته يخفى شيئا خلف تلك الصوره على الحائط فحاولت الوصول إليها فجأة كاد قلبى يتوقف عندما سمعت صوتا صادرا من خلفى لكننى تنفست الصعداء عندما وجدتها "فيرنا" التى أخبرتها أن هناك شيئاً ما خلف تلك الصورة لا أستطيع اخرجه فاستطاعت أحضاره ثم طلبت منها مراقبه "ياسين" حتى يتسنى لى قراءة تلك الأوراق، ما أن فتحتها وأنتهيت من قراءتها حتى أدركت ذلك السر الذى كنت أستيقظ لأيام أفكر فيه وسر هذين الرجلين اللذان اختفيا الليلة وذلك الرجل الأربعينى الذى أنكر معرفته بى والذى تتواجد صورته مع الكثير من الصور لرجال مثله بين الأوراق.

والسبب الحقيقى الذى دفعه أن يأتى إلى باريس ،أدركت أننى ربما لست الحب الحقيقى النابع من قلبه بل ربما الخيط الذى يتمسك به ليبقى على قيد الحياه من أجل تنفيذ خطتة التى بدأت فى ذلك الحفل الذى تقابلنا فيه فى باريس فلم يكن حفل للمتضامنين مع اليهود بعد محرقة هتلر بل حفل لحركه مجالس "الإتحاد الإسرائيلى العالمى" الذى يهتم بيهود الشرق وأفريقيا وقد عقد لشحن الأراء لتعديل رأى الأحبار عن إعتراضهم لتلك المدارس الصهيونيه التى عقدت بباريس والمغرب والتى تعتبر تعاليمها إنسلاخ عن اليهوديه الحقَّة إلى جانب جمع الأموال لليهود ذو الأصول المغربية فى فلسطين عن طريق أعضاء من مركز الاتحاد الاسرائيلى العالمى المتمركز بباريس لشراء الأراضى من الفلسطينيين والتسليح لعصابات اليهود الغيرشرعيه ، فجأة أقبلت "فيرنا" تخبرنى ان اسرع فقد انتهى ياسين لتوه ، جمعت الاوراق بين يدى كدت ان اعيده الى موضعه لكن انتابنى شىء من الخوف ان يصل اليه هذين الرجلين فطويت الاوراق ثم خبأتها بملابسى وذهبت مسرعه إلى غرفتى،لم تنعم عيناى بغفلة أو سِنة من النوم كنت أفكر فى أمرى معه ما الذى ستؤل إليه الأيام القادمة هل اللقاء إلى الأبد أم الفراق إلى الأبد؟.

فى الصباح أخبرنى أنه سيذهب ليقضى بعض الوقت مع زملائه فى أحد المقاهى أصابنى الشك أن يكون هؤلاء الزملاء هم الأشخاص التى رأيت صورهم بين أوراقه فتشبثت بذراعه مترجية أن يصطحبنى أنا وفيرنا معه فى نزهه بسيطه أثناء ذهابه لم يستطع الصمود أمام إلحاحى الطويل.

فى منتصف الطريق جذبتنى رائحه المخبوزات فذهبنا لشراءها كنت أتنقل بين المخبوزات أشم رائحتها لكن عيناى كان تسرقان النظر بين حين والآخر خارج المحل لأرى هذين الرجلين يتبعانا فاقتربت من "فيرنا" مدعية أن تخبرنى رأيها بالمخبوزات ثم همست بسرعة فى أذنها عن أمر الرجلين فأخرجت الأوراق من ثيابها التى إستامنتها عليها فى سرعه بديهيه ووضعتها بثيابى ،إلتفت إلينا "ياسين" لنذهب وما أن اقتربنا من مقهى حتى اجلسنا أنا وفيرنا لنتناول كعكتنا الى ان يذهب إلى المقهى سريعا لإحضار قهوته ويعود تصنعت الإبتسامه وبعد

دقائق من دخول المقهى لمحت أحدهم ينظر من نافذته فعلمت أن المقهى هو المكان المحدد للإلتقاء بأعضاء المنظمة أشرت إلى فيرنا برأسى ففهمت مقصدى أن علينا الدخول بعدما نهضت وتأكدت أن الرجلين لم يعدا خلفنا ،أثناء دخولى سمعت كلمات من حديث عابر لهم عن "مراد شمعون" بأنه هنا ببريطانيا فأسرعت واقتحمت المقهى ،تصلبت أوصال الجميع وشحبت وجوههم ما أن رأونى أمامهم ، نظرت إلى كل منهم على حدى كلما نظرت إلى أحدهم كلما ظهرت فى ذاكرتى صورته واسمه فى تلك الأوراق وذلك الرجل الأربعينى الذى يمثل الذراع الأيمن لـ "ياسين" وقائد المجموعه بغيابه كظلين لرجل واحد فى تلك المنظمه "منظمه شباب القدس"

اقتربت بخطوات واثقه قائله

:مراد شمعون يعلم بأمركم ، لفظ الجميع فى صوت واحد ماذا؟! ، أخبرتهم أننا تزوجنا دون إرادة أبى مراد شمعون، الذى اكتشفت صدفه مدى كره ياسين له أدركت حقيقة إعتراض أبى لزواجنا فليس فقط لأنه مسلم فلسطينى بل لأنه قائد المنظمه التى سرقت منه أموال الاتحاد الصهيونى المجمعة سرا فى ذلك الحفل اقتربت من كل رجل منهم قائلة

:لا داعى للذعر فأنا أعرف كل شخص منك لا أنكر أننى قبل أمس لم أكن أعلم أحداً منكم لا أسمائكم ولا سركم الأعظم الذى نجح زوجى فى أخفائه عنى ،أشحت بوجهى إلى الرجل الأربعينى قائلة

: مرحبا سيد (عمران) لو أخبرتنى بحقيقة أمرك منذ البدايه لوجدتنى أقرب الناس إليك ..أبى كان يسعى إلى تلك الأوراق ،أخرجت الأوراق من ثيابى وألقيت بها على الطاولة أمامهم قائلة

:سيد عمران أرسل رجل إلى المنزل فستجد به رجلين حتما يفتشان المنزل من أجل تلك الاوراق ، لقد أنقذت أرواحكم الآن من قبضه مراد شمعون، الذى اراد منى ان اكون خيطا يصل به اليكم وانتم اردتم أن أكون خيطا تصلون به إليه أيضا ،تلك الأموال التى سرقتموها من المنظمة الهصيونية لن تستطيعوا التسلل بها من الأردن إلى فلسطين الآن أدركت لماذا يقضى زوجى ساعات فى المكتب حتى يجافيه التعب؟ وعلمت لماذا لم يعثر علينا أبى رغم قوته ليعيدنى إلى أحضانه ،صاح أحد الرجال يسمى (يونس) متسائلا عن ما الذى أنوى على فعله؟ ،طمأنته أن لا يخف من شىء ولكن عليهم الخوف على تلك الأموال التى سرقوها والتى جمعوها من مشارق الأرض ومغاربها لتدعيم الحركه الفلسطينية ، وبما أن تلك الأوراق ليست بصحبة أبى فلا خوف عليكم ،هو الآن لا يعرف أحد منكم سوى رجلاً واحد.

نظر الجميع إلى ياسين الذى تصلبت عيناه بعيناى تحكيان ما لم يحكيه لسانه من الندم فى إستخدامى خيط للوصول لأبى ليؤمن نفسه من غدره وربما كانت نظرات تطلب المغفره منى أو القسم بأن ما نبض بقلبه هو حب حقيقى لا مصلحة فيه ،حاولت أن أطمأنهم إلى حديثى فاتخذت من نسف فندق الملك داوود ذريعة بأن اليهود يرتعبون من سحب بريطانيا أطراف ردائها عن تدعيم الدوله الصهيونيه ..لم ينتبه الجميع أن الفندق قد فجر منذ عده شهور لكن نظرات" ياسين" المرتخية فى إبتسامه مخفية أخبرتنى أنه يدرك محاولاتى لأجعلهم يثقون بى ، رأيت فى عيونهم شك قائم فالتمست الحزم الشديد فى صوتى وملامحى قائله:

إن أحدى محظيات القصر الملكى أخبرتنى عن عقد الملك فاروق صفقه شراء أسلحه لا أعلم ما الذى يستعد له لشراء تلك الأسلحه فى ذلك التوقيت ثم إقترحت عليهم مساعدتى لهم لدخول تلك الأموال إلى مصر تعجب الجميع حتى أفصح "السيد عمران" متسائلاً

: السيدة "ميلين" هى من تقول ذلك؟ ،تجاهلت سؤاله ثم إقتربت إلى "ياسين" هامسة فى أذنه قائلة

: منذ أن إرتبط اسمى بك وانعقد قلبى بقلبك نسيت من تكون "ميلين" وعزمت أن أكون تلك الصغيرة التى رسمت ملامحها فى كل عام يمر بك حتى إلتقينا واستسلمت فى مكنونى اليك أن أحيا ك"ايلياء" إلتفت إلى الرجال قائله :

عليكم الاستعداد فالعاصفه لم تبدأ بعد فأنتم لم تذبحوا بالسكين الذى يسن الآن فى تلك المؤتمرات والإتفاقيات بعد ..لن يهدأ اليهود حتى يباد كل عربى فلسطينى وتنزع جذوركم من الأرض ،كيهوديه إستقر حب فلسطين فى نفسى إلى حب إمتلاك وطن نحكم العالم منه وكشخصى أفاق حبها فى قلبى حب حبيب لحبيبته .

فجأه دخل الرجل مضطرب الأنفاس يخبرهم بصدق كلامى أن هناك رجلين يقلبان المنزل رأسا على عقب ،كاد" ياسين" أن يتحدث فقاطعته قائلة: بألا يخف فقد قامت "فيرنا" بتدبير أمور رحيلهما ولا يوجد شئ فى المنزل يثبت وجودنا به!! ثم نظرت إلى "عمران" قائله

:عليكم الإستعداد فاليهود يحتشدون بقوات عسكريه مدربه وباسلحه لا حصر لها طبعا فالاموال تتوافد اليهم من اوروبا ومن اثرياء اليهود وبلا شك تعلمون ان ابى من اهم اعضاء الهيئه الصهيونيه فى العالم . اى انه مصدر من مصادر التمويل لتلك القوات العسكريه ولن يهدأ حتى يستولى على اموالكم ويضيفها لتمويل تلك القوات ،خلعت ميلين معطفها ثم قلبته فكشفت عن سوسته مخفيه فى بطانه المعطف ثم تقدمت فيرنا وخلعت معطفها ايضا وكشفت عن سوستته المخفيه ثم اتجهت الى عمران قائله

:ضع أموالك هنا مع ثقتك بأنكم لن تفقدوا مليم أحمر منها مادمت على قيد الحياة ،كاد أن ينطق أحدهم فقطعته قائلة أن تلك هى الطريقة الوحيدة لتهريب الأموال داخل مصر عن طريق سيده يهودية..وأيضا ثريه فالأثرياء لا يخضعون للتفتيش ،أشار عمران الى رجاله فذهبوا إلى القبو ثم أشار أن أتبعه فاتبعته إلى القبو حيث وقفت أمام صناديق الاموال وبدأ الرجال فى توضيبها داخل المعطف بينما وقف ياسين على باب القبو مستندا بكتفه عليه يحاول النظر إلى عينيى التى تعمدت عدم النظر إليه،

ما أن إنتهى الرجال حتى أشارت "ميلين" لـ " فيرنا" بارتداء المعطف وقمت بارتداء معطفى ثم نظرت إلى الرجال الذى لا حيلة لديهم إلى فى تنفيذ أوامرى أخبرتهم ألا يقلقوا وسوف أقابلهم فى منزلى بمصر فهز الجميع موافقون ثم قال أحدهم

: كيف سنحصل على الأموال فى مصر ،إلتفت إليه قائلة

: هناك كلمه سر ستكون بيننا أرسلوا أحدهم بها وسأعطيه الأموال ،سأل "السيد عمران" على كلمه السر فنظرت إلى ياسين قائلة (إيلياميلين) نظر الجميع إلى بعضهم فى تعجب عن معنى الاسم، لكنى تجاهلت ذلك ثم خرجت "فيرنا" من القبو وأنا اتبعها فارتطم كتفى بكتف "ياسين" ثم نظرت إليه أشبع عيناى منه ثم خرجت باتجاه الباب الخلفى من المقهى سبقتنى "فيرنا" وبعض الرجال الذين انتشروا لتأمين الطريق هممت بالمغادرة لكننى التفتت فوجدته يلتصق بى ،عكست ملامحه الحزينه المؤلمه تلك النهايه التى لم يضعها فى الحسبان ثم قال

:كانت استجابت دعواتى بلقاء تلك الشقراء التى كللت بحبها منذ طفولتى ،أمر لم أكن يوما أصدقه وكأنها معجزة حفظت لأجلى منذ زمن الأنبياء، ولكننى لم أستطع البوح لها بذلك السر الذى كان يطعننى كخنجر في صدرى، كلما إقتربت منها شعرت بأننى خائن أخون ذلك الحب المقدس في قلب من تخلت عن كل شىء من أجلى مقابل حبى لها ..لكنى فلسطينى لم أستطع البوح بما فى أعماقى...أردفت هامسة

: فى ذلك اليوم فى الحفل عندما إعتدى عليك جونس رأيت بحوزتك سلاحا ..رايت يدك تلمسه ما أن صوب مسدسه بوجهك ولولا وقوفى بوجهه لصار شىء لا استطيع تحمل عاقبته فمنذ أن رأيتك فيه تحمل السلاح أدركت أننا مثل نحن مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ..أصبحت لا أبصر فى عينك سوى الالم والخوف ..حين عقد زواجنا ظننت أنه خيال لكن الخيال لا يدوم طويلا ،دست يدها فى جيبها ثم اخرجت صورة لهما فى الجامعة قامت بقطعها إلى نصفين وأعطته نصف يحمل فيه صورتها قائلة

: تمنيت لو أننا تعانقنا فى تلك الصوره ،نظر إلى الصورة المقظوعه متعجبا ثم سألها

:لماذا ؟!، أخفت الدموع فى عينيها بإبتسامه ثم تحسست وجهه قائلة

:هذا فراق بين وبينك...نحن فى قلبنا وطن توافقا فيه وفى واقعنا وطن تنازعاً فيه فأى الأوطان بظنك قد يفوز؟ ،ساد الصمت ونظر بعينيه إلى الأرض يائسا فاحتضنته بذراعي مقبلة شفتاه بحراره الوداع قائلة

: وداعا

رحلت إلى مصر وانا أدرك من صميم قلبى أنى لن أعود إلى بريطانيا مجدداً فقد إنتهى الوصال بها ،ذهبت إلى منزل أمى بمصر ،كنت أتوقع أن أرى والدى به لكنى وجدته خاليا كالأطلال فمكثنا فيه .

وفى كل ليله كنا ننتظر ذلك الرسول الذى يلقى لنا بكلمه السر ،غفوت بفراش أمى فرأيت فى غفوتى حلما غريبا ،رأيت نبتة فى الصحراء ،صغيره للغاية ورقيقة ،تعجبت لها كيف تعيش تلك النبتة الجميلة بين ثنايا رمال حارقه جافة هكذا؟!، فجأة رأيت ياسين ينظر إليها ثم اتجه نحوها وتحسسها بيديه كأنه أراد أن ينعم بلمس تلك النبته بأناامله وقفت انظر اليه بتعجب لما تلك المشاعر المكنونه باتجاه نبته صغيره!، فجأة هبت عاصفة رملية بجوارنا كادت أن تقلع تلك النبتة من جذورها نظرت إلى "ياسين" فرأيته يتراجع بخطوات متباطئة وعيناه متسمرتان عليها بوجهه الحزين عنها ،تعجبت منه وهرولت إليها ثم ألقيت بجسدى

عليها لأحميها من تلك العاصفة إلتفت أنظر لـ "ياسين" فوجدته ينظر إلينا غير عابئ بتلك العاصفة التى إقتربت منه ثم فجأة إختفى بداخلها فصرخت إليه باكية فجأة انتفضت من نومى والفزع يملأ قلبى.

كان الظلام دامسا بالكاد أرى أناملى ناديت "فيرنا" أسألها عن سبب ذلك الظلام لكنها لما تجيب، تحسست بيدى على قنديل على الطاولة إستطعت إشعاله فجأة سمعت خطوات أقدام ثابتة متأنية كأن من يخطوها يخشى أن يسمع بها أحد فأدركت أن هناك غريباً فى المنزل فاسرعت إلى حقيبة ملابسى حيث إحتفظت بمسدس "ياسين" فيه ،وذهبت مسرعة خلف باب غرفتى واطفأت نور القنديل وترقبت دخول ذلك الغريب إلى المنزل فجأة دخل رجلاً يحمل قنديلاً يبحث بعينيه فى أرجاء الغرفة فاتجهت ببطئ نحوه مصوبه مسدسى برأسه أساله من أنت؟ ،رفع يده الآخرى لأعلى ليطمئننى أن لا يحمل سلاحاً ثم إلتفت نحوى رويداً رويداً مقربة القنديل من وجهه فإذا به (جونس) قائلا

: أنا جونس لا تخافى ،تنفست الصعداء لكننى لم أشعر بارتياح لمجيئه ،خطر ببالى أنه يعلم بأمر المال وأتى ليأخذه ،جلسنا الى منضدة منزلنا القديمة أضأنا القناديل رايت فى وجه "جونس"هدوء يثير الرعب فى الأورده وعيناه المرتخيتان لإسفل وتلك الملامح البائسة ويداه المتشابكتان توحى بأن هناك أمر ما يخفيه عنى ،فنظرت إليه فى حدة أطلب منه أن يخبرنى ذلك الشىء الذى يخفيه عنى ،تنهد بعمق ونظر إلى فى مواجهة لا مفر منها قائلا

:احمد الله أنك بخير ..لقد عدتى فى الوقت المناسب يا "ميلين" ..فـ "مراد شمعون" جند بعض الشباب لإغتيال ياسين ،إنتفضت واقفه صارخه بوجهه قائلة

:لا شك أنك كنت جزء من مخطط أبى، فى بدايه الأمر رفض الزواج وانهالت اتهاماته بالخيانه والكفر على عاتقى وفى النهايه لم يبحث عنى ليلغى ذلك الزفاف بالمغرب ،كنت تعلم من هو ياسين وما يفعله ومخطط أبى بأن أكون طعم للإمساك به وبمن معه ،انتفض صارخا

:أجل لكننا لم نستطع ،كنت أنت الحائل الذى حال بيننا وبين معرفه أعضاء منظمه الفدائيين ،لم نستطع العثور عليهم لكن الجيش ينهار بموت القائد ،نحن لسنا فى حرب دينية مع العرب بل حرب عرقية أيضا ،نحلم أن نغمض أعيننا ونفتحها على أرض خاليا من العرب والمسلمين وزوجك عليه أن يموت وعليك أن تعودى إلينا وإلى ملتنا من جديد ،لا تجعلينى السلاح الذى يصوبه والدك فى وجهك ،فجأة دخل بعض الرجال أحكما القبض على ذراعاى فصرخت قائله

:العرب لن يصمتوا..لن يتركوا عروبتهم تسلب منهم ودينهم يسلب من بين صدورهم ويصمتون سيثورون كالبركان ويقضون علينا عن بكرة أبينا سينهالون علينا كالذئاب الضارية ولن يصبح لليهود مكانا ولا للصهيونيه فكراً فى شبر من أرض العرب .

إبتسم ساخراً قائلاً

: العرب الآن غافلين فى بئر يوسف المظلم ولن يخروجوا من ظلمته فقد ضلت قافله مصر الطريق !،أخرج وشاحاً أغلق به فمى قائلا

:لم تعد "ميلين" التى أشرق قلبى بحبها لكن من أجل الدم الذى يسرى فى عرقنا سأجعل أبيك يترأف بك ،ربط أحد الرجال معصمى وآخر قدماى وحملانى إلى السيارة ،ساعات طويلة قد مضت وأنا ملقية فى مقعد السيارة الخلفى و"جونس" بجوار السائق تسللت نظراته بين الحين والآخر من المرآة لرؤيتى ،أرخيت رأسى مرهقة إنتابنى الصداع وأنا أفكر ما تفسير ذلك الحلم حيث العاصفة التى إختفى بها "ياسين" ،أهى تشير لقتله؟ وأين إختفت "فيرنا" ؟ ،طرأ على عقلى من المستحيل أن تكون جاسوسة لأبى وقد أخذت تلك الأموال وذهبت بها اليه ..بالتأكيد هى جاسوسة وإلا كيف علم "جونس" أننا عدنا إلى مصر.؟!، شعرت أننى فى متاهه لا أستطيع الخروج منها متاهة الخيانة ،الكل خان قلبى وعشقى وأيامى ،أين الملجأ حيث الأمان يا الله؟ أين؟!

فجأة توقفت السيارة أمام فيلا ضخمة يحيط بها النخيل والاشجار لا منازل حولها ولا حتى أكواخ كأنها بنيت خصيصا فى ذلك المكان المعزول فتح (جونس) باب السيارة وفك أوصالى ونزع الوشاح عن فمى لاحظ إختلاط أحمر الشفاه عليه فشعرت أنه يكاد يتحسسه بشفاهه لكنه إنتبه لرؤيتى له فوضعه بسرعة بجيبه ثم نظر إلى قائلا

:الفيوم ترحب بك ..،رددت بينى وبين نفسى ..الفيوم؟!، عليك أن تمضى فى موضع قدمى لا تنحرفى خطوة واحدة عن خطواتى المكان مزروع بالألغام أن أخطات قدمك موضع قدمى ...،لم يستطع إستكمال تلك الكلمة التى يمقتها كثيراً منذ موت والداه فى حادث بالمغرب ،هززت رأسى واتبعت خطواته لاحظت أن الأرض محددة بعلامات نخطو عليها وباقى الفناء به آثار حفر تناثرت عليه أوراق الشجر الذابلة فأخفت آثار الحفر ،ما أن دخلت الفيلا حتى وجدت أبى واقفا ينتظرنى يكاد ينفجر من الغيظ .

إستكمل أبى إتهامه لى بأننى خربت كل ما كان يخطط له أفسدت عليه القبض على هؤلاء المجرمين كما دعاهم الذى فشل أقوى رجاله فى التجسس من الإمساك بهم ثم أمر رجاله بأن يمنعوننى من أن أضع قدما خارج الفيلا وإلا سيقتلهم حتى لو تطلب الأمر بأن يكسروا قدماى لمنعى من الخروج ! ،لم أصدق ما تسمعه أذناى من تلك القسوة التى رأيت بها أبى شعرت أن جهنم قد وضعت أمامى على الأرض هنا فى قلب ذلك الرجل ، إصطحبنى "جونس" إلى غرفتى ثم نادى على إحدى الخادمات التى أغويت بالمال للخدمة فى بيت يضج باليهود يوصيها بالإعتناء بى وبخدمتى جيدا ثم غادر ،تلصصت النظر من الشرفة أجد أى سبيل للهروب أو أى طريق للنجاة لكننى لم أجد ،مرت أيام والخوف يأكل قلبى ماذا عن "فيرنا" ؟والمال الذى بحوذتها؟ وماذا عن "ياسين"؟ هل أصبح فى عداد الأموات؟ أم أن محاولات أبى مستمرة؟

فى إحدى الليالى تكرر ذلك الحلم مجدداً فانتفضت مضطربة الأنفاس غارقة فى عرقى .التفت إرتشف بعض الماء لكنى لم أجد أحداً فناديت على الخادمة لكن يبدو أنها نائمة فنهضت أنزل حيث المطبخ فجأة لاحظت نوراً مضاءً بإحدى غرف الفيلا ..اقتربت من الباب أسترق السمع فسمعت صوتا مألوفا يتحدث مع أبى فجأة سمعت إقتراب أصواتهم من الباب فأسرعت مختبأة ،تصلبت أوصالى وسحبت الأنفاس من صدرى عندما رأيت (السيدعمران) يصافح أبى مغادراً! .لم أصدق ما تراه عينى هل السيد عمران عميلاً مزدوجاً ؟! ،أم أنه خائن قد أفشى سر

المنظمة وقد عثر أبى على ياسين؟! ،شعرت بالغثيان فهرولت صاعدة إلى غرفتى ،أدركت حقيقة الأمر لذلك الغثيان والقئ الذى لزمى لعده أيام ..أوصدت باب الحمام وجلست أبكى.

الآن أدركت سر تلك النبتة التى إحتضنتها ،انها الطفل فى أحشائى !،جسدى المرتعش وخوفى الذى يأكل قلبى نابع من تلك الأفكار التى خطرت على عقلى لو علم أحدهم أن فى أحشاء تلك الصهيونية طفل فلسطينى ينمو فلن يمكثوا ساعة حتى يرون بدمائه أرض مصر.. .....

نهضت على أثر حركة مريبة تحدث بالأسفل فتسللت لأرى ماذا يحدث ،رأيت مجموعة من الرجال يسحبون رجلين من ذراعيهم إلى مكان ما بالفيلا فتسللت خلفهم أرى إلى أين يأخذونهم ؟،فرأيت غرفه سريه فى بهو الفيلا لم أرها من قبل! ،إقتربت أكثر من المكان لأرى ما وراء هذين الشخصين ،فاستطعت رؤية مايحدث من فتحة صغيرة بالباب ،رأيت أحد الشخصين شباب لا يتعدى عمره الخامسة والعشرون عاما وجهه ملىء بالكدمات والدماء راكعا أمام "أبى" و"جونس" ورجالهم ،والآخر رجلا على مشارف الأربعين من العمر ،كلاهما مكبل الأيدى ،بدا على وجوههم آثار التعذيب ،فجأة اقترب من الشاب رجلا و لطمه لطمة قوية إندثرت الدماء من فمه ثم اقترب منه أبى يأمره بالإعتراف ،لكن الشاب أقسم أنه لا يعلم عن ذلك الأمر شيئاً ،تساءلت عن ذلك الأمر الذى جىء بهما إلى هنا ؟، فجأة أَخرج أبى مسدساً وصوَّبه إلى رأسه قائلا

: العرب فاشلون ...فى كل شىء حتى الخيانه! .

ثم أطلق الرصاص فسقط الشاب جثة هامدة ،تصلبت أوصالى وتسمرت مكانى كذلك إرتعب الرجل الآخر خوفاً صارخاً ألا يقتلوه فهو لا يعرفهم ولا يعلم لما هو هنا ،إقترب منه (جونس) مصوبا مسدسه إلى صدره قائلا

: أمامك خيارين لا ثالث لهما وأمامك دقيقه واحده،أخرج الساعة من جيبه ينظر إلى التوقيت قائلا

: إما أن تخلص لنا ولك من المال والسلطه ماشئت او ترقد جثة هامدة كالقمامة بجوار ذلك الشئ (أشار إلى الشاب) ، إرتعب الرجل ينظر بعينيه عن مفر لكن لا مفر لمن لا قوة له..لا مفر لمن ترك وحيدا دون يد تمتد إليه بالمساعدة ،أردت أن اقتحم تلك المذبحة التى حدثت أمام عينى ،إستجمعت قُواى وهممت أن أدخل لكن فجأة تسمرت مكانى عندما أطلق "جونس" الرصاص ليستقر بقلب الرجل ،تلك الصرخة التى أطلقها قبل موته إقشعر جسدى وملئ قلبى رعباً ..تخيلت صرخة طفلى الذى سيطلقها أثناء موته على يد أبى ،تصلبت أوصالى وهرولت إلى غرفة أبى لأبحث فيها عن مسدسه لاحظ "جونس" أن هناك من كان يراقبهم فأسرع الى الباب ،فلمح طرف ردائى فأتبعنى إلى غرفة أبى حيث يحتفظ كعادته بمسدس تحت وسادة وأخر بجيبه ،سمعت نداء (جونس) يأمرنى أن أتوقف لكن لم أعبأ له،بحثت عن المسدس بهرولة لكنى لم أجده ،فجأة رأيت (جونس) يقف أمامى وقعت عينى على المسدس بيده فانتبه لى وأسرع بإخفائه فى ثيابه ،حاول أن يهدئ من روعى لكن لا شئ يستطيع أن يوقف ذلك الطوفان بداخلى ،رأيت كوب بجوار السرير فكسرت جزء منه ووضعت جزء مكسور ذو شفرة حادة على عنقى

،إنتفض (جونس) مفزوعا كانه على شفا هاوية فجأه رأيت أبى خلفه مهروﻻً وفى تلك اللحظه التى رأى فيها ما أفعل، صب غضبه متوعدا إن لم أترك ما بيدى وأتراجع عما برأسى من امر الإنتحار فسأعد كافرة ،طفح الكيل من تلك الإتهامات المنهالة علىَّ فصرخت قائلة

: أنا ملعونه.. فى كل كتاب وكل أرض ..لم أشعر بأنك أبى للحظة واحدة لم تشعرنى بأننى ابنتك الوحيدة أبدا ،تلاعبت بى وبقلبى وبإيمانى ...

غرزت طرف الزجاجه برقبتى فسالت بعض قطرات الدماء صرخ جونس وأبى بان اتوقف ،فصرخت فيهم قائلة

:إما أن تتركانى أغادر ذلك السجن بامان أو أن تروا جثة ثالثة فى ذلك المكان الملعون ،أمامكم ثلاثون ثانيه لتختاروا، رأيت تجهم وجه جونس وبدأت عيناه لامعه مصدوما لأننى سمعت كل شىء منذ البداية ،فابتلع ريقه قائلا

: أملهينا بعض الوقت أرجوك ولا تتهورى ...

إبتسمت بسخرية : لم تمهل رجلا ليختار بين أن يخون بلاده و تاريخه وعرضه وهويته أو يقتل وتسلب حياته أكثر من ثلاثين ثانيه وتريدنى أن أعطيك وقتاً ؟! ،لا خيار لكم سوى أن تفسحوا لى الطريق ،أوقفنى أبى قائلا:

:هناك من أريدك أن تقابليه قبل أن تغادرى المكان لنرى بعدها هل ستصرين على المغادرة أم لا ،لم أفهم ما الذى يقصده ،فأشار بوجه إلى أحد الرجال الذي اتبعاه فذهب ،ظننت أنه سيحضر ياسين فاضطرب قلبى وتصاعدت أنفاسى أترقب من ذا الذى قد يوقفنى عن قرارى؟! ،فجأة رأيت "فيرنا" التى ألقت علىَّ التحيه عندما رأتنى ،نظرت إليها فى دهشة لا أصدق أنها أمامى ،أردف أبى قائلا

:صديقتك "فيرنا" كانت العرَّابه التى تعتنى بك .. إبنتى العزيزه.. أنا لم ألقَ بك فى أحضان ذلك الهمجى دون زورق نجاة ،بفضلها علمنا كل خطوة تخطوها إلى أن جئتى إلى هنا وبفضل عزيزتنا "فيرنا" إستطعنا الحصول على أموال هؤلاء المجرمين إلى جانب الأموال التى سرقوها منا ،تصلبت أوصالى شعرت أن الدنيا تنهال جدرانها لتكشف عن الجحيم ،لم تحملنى قدماى فسقطت جالسه على الأرض ،أسرع جونس نحوى ينزع من يدى قطعة الزجاج المكسورة التى لُطخت بدمائى وأخرج منديله يكتم ذلك الدماء المسال على رقبتى ،بينما عيناى متصلبتان بفيرنا لا أصدق أن الحارس الأمين الذى كان يحمينى هو نفسه السياف الذى إنهالت شفرة سيفه على حياتى و قلبى فخانه ،السيد عمران ويونس والان فيرنا كلهم خائنون ،إتبع أبى قائلا

:وعليك أن تتوقعى ما حدث لذلك الفلسطينى .

فأدركت أن ياسين الآن فى عداد الأموات ولا ذكرى له فى تلك الحياة سوى ذلك الذى ينمو بأحشائى ،إستسلمت واستسلمت معى كل قطعة بى حتى عيناى استسلمتا إلى الجحود فلم تستطعا أن تزيح ذلك الحزن عن قلبى بدموعهما ،خرج أبى برجاله بنشوة الإنتصار وبصحبتة "فيرنا"

بينما جلس جونس راكعا على الأرض أمامى حتى غلبنى النوم ،فجأه سمعت صوت كروان يغرد بجوار أذنى فاستيقظت أنظر باتجاه الصوت فجأه أخبرنى جونس قائلا

: صوت الكروان ..،إلتفت إليه فرأيت فى عينيه تلك الشوكة التى كسرت ضهر البعير ،رأيت عيون موسى تنفجر بقلبه الحجرى ،ذلك الإنكسار والإستسلام فى صوته والألم النابع بداخله أوحى لى بأن اسوار قلبه قد إنهارت وبراكين الغضب والغيرة قد إنطفأت وهدأ ثورانها ،نظر بعينيه إلى النافذة قائلا

:لقد حل الليل يا "ميلين" ..ليل تلك الليله ثقيل للغايه ..لم أر ليلاً حالكا وثقيلا فى حياتى كتلك الليلة !،ليتنى أستطيع إنتزاع ما يؤلم قلبك لأضعه بقلبى ،لستنى استطيع ان أمحو ما يؤلمك من ذكريات ،ليتنى إستطعت أن أرى السبيل إلى روحك لتحبيننى.. وأعود بـأدراجى بالزمن لامحو تلك الليلة الثقيلة من حياتك وأن أعود حيث كنا صغار فى المغرب حيث إبتساماتنا البريئة التى لا تعبأ لأحد ولا لشىء ..لقد أدركت أننى كنت أعمى طوال حياتى ولم أبصر إلا اليوم لكننى أبصرت على إنهيارك ..أرجوك سامحينى ..لا أطلب منك أن تعطينى قلبك لكننى أعطيك قلبى ولا أريد منك أن تحبيننى أكثر أو تكرهيننى أكثر . بل أعِيدى الى تلك المكانة بقلبك كما كنت ،سأكتفى بذلك ،رأيت الدموع بعينه ،فأخبرته أننى أريد الهروب من هنا حيث لا "جونس "ولا "مراد شمعون" ولا "فيرنا" ولا أحد على الإطلاق ،أرغب فى العودة إلى المغرب أو إلى منزل أمى لأصبح جزء من أطلاله إلى أن ينتهى بى العمر .

: عليك الإنتظار قليلا فقريبا سيصبح لنا جميعا وطن بفلسطين لقد إقتربنا .

فى هدوء : لا أريد أن أذهب إلى فلسطين ..فهى تنمو بأحشائى ،..فتاريخها وعرقها وقوتها وضعفها وقلة حيلتها وصرختها الجبارة وقداستها واللعنة التى أحلت بها تنمو هنا بأحشائى ..أستطيع الشعور بها تتحرك..

إنتفض جونس واقفا بأنفاس متصارعة متضاربة : لا ..لا يمكن أنت ..قاطعته قائلة :

أحمل بين أحشائى ابناً من أبناء فلسطين وحفيد من أحفاد صهيون ..أليس القدر يسخر بنا بطريقته الخاصة؟!

:علينا التخلص منه حالاً .

أنت تعلم أن الإجهاض محرماً فى شريعتنا وكيهودية فديانتى تحمينى من الإجهاض..لا يحمل ذلك الصغير خطر على اليهود بل أظنه الرحمة التى ستولد بينهم ،إنعقد لسانه وهدأ روعه أمام هدوئى ،شعر أنه لا قوة لنيرانه التى إنطفات فاستسلم محنىُ الرأس لبعض الوقت ثم خرج ،نظرت إلى الشرفة حيث عاد صوت الكروان من جديد فتذكرت أمى وتمنيت أن تأتى لإنقاذى من هنا ،فجأة دخلت "فيرنا" مهرولة كدت أن أضربها على خيانتها لكنها أسرعت قائلة :

علينا الهروب من هنا...أوقفتها بقوة متهمة لها بالخيانه ،لم تعبأ لكلماتى وساعدتنى على النهوض وضعت معطفا على جسدى ثم تسللنا إلى خارج الفيلا ثم اسكت يدى قائلة أن على أن أضع قدمى مكان موضع قدمها ،كان على الإنصياع لكلامها ما أن ابتعدنا ببضع أمتار عن الفيلا حتى

أخبرتنى ألا اتحدث بأى شئ.. فجأة ظهرت سيارة من بعيد فإرتعبت أوصالى أن يكون رجال أبى فضمتنى إليها واختبأنا بأرض مزروعة إستقرت السيارة فى منتصف الطريق فأمرتنى "فيرنا" أن أظل مكانى لا أظهر إلا بعد عودتها ثم إنطلقت نحو السيارة التى خرج منها بعض الرجال فسمعته يتهامسون قائلين ما هى كلمة السر فقالت :

: "التمير" ،إنتابتنى الدهشة وأنا استمع لهما فهذا يعنى امر واحدا انا على يقين به ،ثم أسرعت (فيرنا) بإتجاهى وأخذتنى إلى حيث الرجال ،صعدنا السيارة هاربين ،كانت عينى تراقب إبتعادنا عن الفيلا التى توارت عن الأنظار.

وما أن شارفنا على دخول القاهرة حتى نزلنا جميعا وركبنا سيارة أخرى أخذتنا إلى منزل مجهول لم أره من قبل ،كانت المخاوف تزداد بقلبى أن تكون مكيدة من مكائد "جونس" ،لكن ما أن دخلت المنزل حتى إنهرت باكية ،لم تحملنى قدمى من الخوف الذى إنهار بعد تلك اللحظه،الان تاكدت من الشك الذى خطر ببالى عندما سمعت كلمه السر (التمير) ،ركض نحوى يضمنى بين أحضانه ،أبكت صرخاتى ودموعى رجاله حولنا فأشاروا لبعضهم ليخرجوا جميعا بينما وقفت "فيرنا" تكبت دموعها ،لم أصدق أن ياسين بين أحضانى الآن !، تحسست وجهه وعينيه الدامعه وعانقت أحضانه الدافئة ،شعرت بأن العالم إتسع بين أحضانى وجدران الأمان قد شيدت حولى وزهور الدنيا فاحت بعطرها فى أنفاسه وتحررت قيودى ،شعرت بحب بأعماقى كناسك ذاق حلاوة الإيمان فى أعماقك ،ورأيت الأمل فى النجاة كـا الامل الذى راه يوسف حين تمسك بدلوا قافله مصر ،تراخى جسدى بحضنه حتى غبت عن الوعى ،فتحت عينى فوجدتنى على الفراش بجوارى" فيرنا" و"ياسين" يترقبان إستيقاظى ،ما أن رأتنى عينيه حتى تخللت أنامله الدافئة بين خصلات شعرى مبتسما لكن دموعه خانته فسقطت على وجهى فإعتذر لذلك ومد يده مسحها مبتسما قائلا :

لا أصدق أنك مازلتى صامدة...لقد خفت أن تفشل مهمة فيرنا ،إعتدلت جالسة متعجبة ،فأخبرنى ما لم تصدقه أذنى قائلا :

فيرنا منذ البداية هى الحارس المقدس لعزيزتى "ميلين" حينما سافرتما إلى مصر علمت بأن "مراد شمعون" أدرك حقيقة أن الأموال بصحبتكما ،وخطط إلى سرقتها منكما ، أثارنى الشك ..كيف علم بحقيقه أن الأموال بصحبتكما؟! ، فأرسلت لـ "فيرنا" أحد أصدقائنا المصريين الذى إنضم سرا لمنظمتنا ،تقابلت معه أثناء تسوقها وأخبرها بكلمة السر لتدرك أنه معنا ،فتسلمت منه ورقة بها موعد تسليم الأموال وكلمة السر الجديدة ،تسللت "فيرنا" ليلا وسلمت لنا الأموال لكننا إحتفظنا بجزء بسيط منه بجعبتها حتى يجدها "مراد شمعون" و"جونس" فلا يقع بقلبهما شك بعملائنا الذيْن أخبرانا عن خطتهما لسرقه الأموال ،لكن لم أتوقع أنهما سيقتحموا المنزل فى ذلك الوقت التى كانت تسلم فيه فيرنا الاموال ،ما أن غادرتى بالسيارة أسرع أحد رجالى الذين يحرسون المنزل منذ اللحظة التى وطأت قدمك أرض مصر بإخبارى ما حدث .....

فأمرت فيرنا أن تسرع إلى المنزل وكأن شيئا لم يحدث فحتما سيأتى أحدهم لأجلها مرة أخرى وقد صدقت توقعاتى حيث ترك "جونس" بعض رجاله لأجلها وقد قاموا بأخذها معهم ،سلمت له المال فى سلاسه وأخبرته بكل شىء عنا لكن الأشياء التى أمرناها أن تخبره بها بالطبع ،كان بيننا خائنون بالفعل لم نعلم بأمرهم إلا بعدما اقترحتى أخذ الأموال إلى مصر ،لك الفضل فى

ذلك لو لم نتخلص منهم لكنا جميعا فى عداد الأموات ولانهارت مخططتنا جميعا ،أوشينا بهم لـ "مراد شمعون" أخبرت فيرنا أن تخبره أنهم أحد أعضاء منظمتنا المخلصين وبالفعل وقع فى الفخ وقضى عليهم وتخلصنا منهم وبالفعل كسبنا ثقه مراد فى فيرنا للمرة الثانية وعملائنا التى ظننتى أنهما جسوسين أو عميلين مزدوجين

: تقصد السيد عمران ويونس؟!

أجل ،السيد عمران رجلا وقورا ، بمثابه الأب الروحى لى رغم أنه من أب مصرى وأم بريطانيه ،تولى مساندتى فى كل شىء بحياتى ،عندما سافرت إلى فلسطين كتبت بضع رسائل لك وتولى هو امر إرسالها من بريطانيا ،إعتنى بدراستى فى غيابى وأخبرنى أنك تبحثين عنى فى بريطانيا فأسرعت بالمجىء ،كما أنه صاحب الفضل فى تدبير منزلنا ببريطانيا ،وصاحب الفضل فى أننا علمنا أين خبأك "مراد شمعون وجونس ،فقد رآك كما رأيتيهم فى ذلك اليوم لكنه تظاهر بعدم رؤيتك ،ولك الفضل أيضا فى معرفتنا لمكانك فلولا وجودك فى تلك الحظة ما هدأت تلك الثورة التى بداخلنا فى البحث عنك حتى كاد "يونس أن يسأل "مراد عنك ذات مرو لولا أن "السيد عمران" منعه فى آخر لحظة ،ومن العجيب أن فيرنا لم تعلم أنك بنفس المكان التى أُحتجزت فيه أيضا !

فقد خبأك "جونس" عن نظرها ليتأكد من ثقته فيها ،من كان يستطيع رؤيتها للحظات هو يونس فقد أوحى لجونس إهتمامه بها وبالطبع كانت الوسيله الوحيدة للتواصل مع فيرنا وإرسال رساله مع يونس بها خطة الهروب وكلمة السر وها قد عدتى بين أحضانى مرة أخرى....

: بل عدنا ،أشرت إلى بطنى ففهم المغزى ،فاقترب منى فى مشاعر لا توصف بين السعادة والخوف والإبتسامه التى كللت بالدموع ثم ركع أمامى واضعا أذنه على بطنى ..لكن سرعان ما صدح صوته بالبكاء وتحسس بطنى بيدين مرتعشتين كمن أنعم عليه برؤية الحياة من بين ثنايا الموت الذى لم ير غيره فى حياته!.

فى عام ١٩٤٧

إقتربت اللحظات الأخيرة لأضع مولودى ،كانت الأمورعلى أشدها ،سحبت بريطانيا رداءها من القضية الفلسطينيه بعدما مهدت الأرض لتضع الصهيونية جذورها بالأرض ومضت كأنها لم تسرق شيئاً ولم تقتل أحداً ،أصبحت القوة الصهيونية أقوى من القوة الفلسطينية ،وشجعت الجامعه العربيه على التدريب المسلح للفلسطينيين إستعداداً للمواجهة وأعلنت عصابات الهاغانا التعبئة العامة لليهود حتى أن النساء اليهوديات تجندن أيضا ،العالم شيد كلماته والعرب واليهود شيدوا أسلحتهم وما أن إنطلق العالم معلناً عن الإستعداد لإعلان دولة إسرائيل حتى إنطلقت الرصاصات من إفواه البنادق وانطلقت أول صرخة منى فى ميلاد طفلى ،كنت كفلسطين لا حيلة لى اترنح بين ألم المخاض وألم الفراق ،لم يكن بجوارى سوى "فيرنا" وبعض النساء اللاتى ساعدونى على الولادة أما ياسين كان بالقدس تاركاً بعض رجاله لحراستنا ،مضى الليل طويلاً والألم يفتك بجسدى وفى لحظه إنطلقت أول صرخة لطفلى سمعتها كأنها صرخة الحرية! .. ،أرهقنى التعب حتى غفوت سريعا فى نومى دون أن أرى مولودى ..شعرت بأن أحدهم يربت على رأسى تتخلل أنامله شعرى فاستيقظت من نومى لكننى لم أجد أحداً!، كان الهدوء يعم المكان هدوء فيثير الرعب فى أوصالى ،ناديت فيرنا لكنها لم تأت نظرت بجوارى فلم أجد طفلى ،تحملت الألم واستندت بكل ركن فى الغرفة حتى أصل للخارج ما أن فتحت باب الغرفة حتى ألم بى بما ألم فلسطين من مصيبتها رأيت دماء منثوره على الجدران و جثه أحد الرجال بالقرب من باب غرفتى ،إقتربت منه أتحسس أنفاسه لكنه فارق الحياة هرولت أبحث عن فيرنا وطفلى فرأيت ثلاثه رجال آخرين قتلى فى أسفل المنزل بحثت عن الحياة فيهم لكنَّ أرواحهم قد وجدت طريقها لخالقها إنتبهت لصوت آنات يصدر من المطبخ فأسرعت إليه فإذا بها "فيرنا" تلفظ أنفاسها الأخيرة هرولت إليها حملت رأسها المخطب بالدماء وجسدها الملقى على الأرض كانت تبكى تعتذر أنها لم تستطع حماية طفلى فقد إقتحم بعض الرجال المنزل وأخذوا الطفل..سألتها ما الطفل أفتاة أم صبى ..فعينى لم تره بعد وصدرى لم يدفىء بجسده الصغير أبداً .رفعت فيرنا يدها تتحسس وجهى كأنها تخبرنى أنه جميلا مثلى ثم لفظت بعض الحروف لكن الموت لم يمهلها أن تكمل كلمتها لتبرد نار قلبى فسقطت يدها معلنة موتها .

خرجت من المنزل كانت الأجواء هادئة لا أحد يمر أو يسأل ما الذى حدث هنا ،أدركت أن جونس وأبى هما من وراء ذلك فليس لدى أعداء سواهم ،ومن المؤكد أن أبى علم من "جونس الأمر، ولن يتمهل لحظة واحدة فى قتل طفلى، أسرعت حافية القدمين بثيابى المخضبة بدماء ولادة روح لا أدرى ما شكلها خلقت من جسدى وأخذت من نفسى جزءاً ومن روحى جزءاً ولم أنعم بحملة أو رؤيته ولو للحظة، مختلطة بدماء "فيرنا" العزيزة وهؤلاء الرجال ،أسرعت إلى منزل أمى القديم إقتحمت أبوابه الموصدة صعدت إلى أعلى افتش عن روحى التى سرقت لكن لم أجد سوى أطلال تغمرها الغبار بكل مكان ، تشتت عقلى أتساءل إلى أين إختفوا فخطر ببالى تلك الفيلا بالفيوم فأسرعت إلى هناك بالقطار كنت أرى عيون الناس تسال عن هوية تلك المرأة المجنونة التى يمتلىء ثوبها بالدماء والتراب ،ينبع الجنون من بين جفونها كالذى فقدت أغلى ما تملك ،وكيف لا وقد فقدت جزء من روحى للتو ،وصلت إلى المحطة وأخذت حنطور، لم أمهل السائق أن يسالنى إلى أين بنظراته التى تتعجب من مظهرى ،فطرحته بيدى إلى خلف العربه وقبضت على زمام الخيل مهرولة إلى ذلك المكان أوشك النهار على البزوغ وتراءت الفيلا

أمامى من بعيد فأسرعت اليها ما أن إقتربت حتى قفزت متجاهلة تلك الألام التى إقتحمت جسدى بغفلة منى ،دخلت إلى الفيلا لكن هدوءها أثار الرعب فى قلبى واضطربت أنفاسى ، صعدت إلى غرفتى لم أجد شيئا فيها ، فتشت فى كل ركن بالفيلا لكننى لم أجد أثر يدل على أن احدهم كان يعيش هنا !

تثاقلت أحزانى بقلبى فسقطت على الأرض باكية إنتحب على ما وصلت إليه من قيلة الحيله ،فجأه تذكرت ذلك البهو السرى الذى قتل به الخائنين فأسرعت إليه ما أن فتحته حتى إهتزت قدمالى مرتعشتين عاجزتين عن حمل جسدى المرتعب من هول ما رأيت ،لم تحملنى قدماى عندما رأيت جثة السيد عمران ويونس مقيدان الأيدى من خلف ظهورهم وكذلك الأرجل ،لم يترك الرصاص موضعا فى جسدهم إلا وأصابه ،تحسست أجسادهم اليابسة المثلجة افتش فى ملابسهم عن شيء يدلنى على صغيرى فوجدت بحوزت السيد عمران رسالة ، فجأة سمعت صوتاً بالخارج فاحتفظت بالورقه ثم أطرقت السمع إلى مصدر الصوت فوجدت باب مخفى فى ذلك البهو عافرت للعثور عليه ثم فتحته كان نور الشمس ساطعاً بعينى فأحسست بوطأ أقدامى على أرض رطبه ثم حجب شعاع الشمس عن عينى رجلا من رجال البوليس المصرى الذى إتسعت عيناه مندهشين لرؤيتى أمامه رأيت فيه للوهلة الأولى وجه "ياسين لكن لحظات وظهر وجه الحقيقى أمامى كان شابا بالكاد يقترب عمره من الثامنه والعشرين يمد يده إلى محذرا لى أننى اخطوا على أرض بها ألغام وعلى أن اتبع خطواته ليخرج بى بأمان ،لم يخضع عقلى لكلامه ومضت قدماى أبحث حول المنزل عن طفلى لعلى أجده فى مخبأ هنا او هناك ،بينما كان الضابط يتبعنى خائفاً ان تقع أقدامنا على أحد الألغام ،ثم فجاه صرخ بى وألقى بى على الأرض لاسمع دوى إنفجار وعندها لم أعد أسمع أو أرى شيئاً ،فتحت عيناى لأجد نفسى بالمستشفى تجلس بجوارى ممرضه التى أسرعت إلى الخارج ثم أتت بالضابط ومعه شرطى ،سألنى من أنا وما علاقتى بتلك الفيلا ولما وضعت الألغام حولها ،لكن لم أعلم كيف أجيب ،أخبرتهم حقيقة أمرى وسرقة طفلى لكن العجيب أن الشرطه لم تعثر على جثة "فيرنا وهؤلاء الرجال الذين قتلوا ولا أثر لقطرة دماء فى المنزل إلا جثة "السيد عمران ويونس" ،قيدت القضية ضد مجهول وأرسلت إلى منزلى بعدما تداولت الشكوك حولى بأننى مجنونه! ،أصبحت أصرخ فى ذلك القاع الذى أُلقيت فيه من أعلى السماء ،وتلك الألاعيب التى أثارت فى عقلى الجنون والتساؤلات عن هوية من أخفى جثث من قتلوا بالمنزل، عدت إلى فراشى أحتضن نفسى ،أرمم ذلك الدمار بداخلى وأبحث عن ضوء يقودنى فى تلك الظلمات النابعة منى لكنى لم أجد سبيلاً إلى شاطىء النجاة فى هذا الموج المتلاطم الذى أعيش فيه ،مضت أيام لا أدرى ما عددها وكيف مرت وأنا ملقية على الفراش بلا حراك فجأ جاءتنى فكرة أن يكون أبى وجونس سرقا طفلى وعادا به إلى المغرب ،فسافرت إلى المغرب لأمى فهى بصيص الأمل والنور الذى يعيد الأمور إلى مجراها الصحيح ،لكننى لم أجد سوى غرباء بمنزلنا الذين تعجبوا من محاولتى لفتح المنزل فأخبرتهم أن هذا منزل أمى لكنهم أخبرونى أن المنزل قد عرض للبيع منذ أسبوعين بعدما توفت صاحبته ،تصلبت أوصالى وانطفأ بصيص النور الذى أنار حياتى فحملت نفسى بثقل تلك المصائب إلى المقابر فرأيت قبرها ،ركعت أمامها أصرخ عليها ...لماذا تركتينى لماذا لم تودعينى قبل وداعك .. حفرت قبرها وأنا اؤنبها وأصرخ عليها أن تنهض فأنا بحاجتها

:عانقينى بدفء قلبك حتى يرحل الخوف من قلبى ،عانقينى فقد إنهارت جدرانى ،لقد اقحلت حياتى الزهرية وقُصت جناحاتى لقد ألقى بى فى أعماق حوت يونس وأصبحت نسيا منسيا ،فلتنهضى ..أنقذينى فقد غرق زورق نجاتى ..لقد إنهارت حياتى لقد طردت من جنتك إلى الأبد ،لم يعد لى أحد فى تلك الحياة ،الكل خان والكل رحل والكل أطفأ شموعه وتركنى فى ظلمتى ،أى ذنب قد فعلتُ لأهلك هكذا وأنا على قيد الحياة لأقتل وأعذب بجرحى ولا أذوق راحة الموت بل ألم الموت يتخللنى ،لم هذا الجحيم ؟! لماذا تلك الهاوية التى ألقى بى فيها؟! هل هذا جزاء ذنب نسيت أن أطلب الغفران له أم أنه عذاب لما سألقاه فى آخرتى ؟! ".

إستمريت فى حفر قبرها حتى كسرت أظافرى ولم تعد يداى قادرة عى الحفر ولطخ أسوارها بمعصمى بالتراب فمسحت عنه التراب وأحتضنته إلى صدرى فهذا هو الذكرى الأخيرة لها معى وكذلك التذكار الاخير!، نمت بجوار قبرها وأنا أحتضنه باكية على جوهرة روحى التى سلبها الموت منى ،وقفت أمام مرسى البواخر أنتظر الرحيل فتذكرت اللقاء الذى جمعنى بأمى وهى تعطينى سوارها هدية زفافى وتعلقه بيدى ونا استمع لكلماتها لكننى قاطعتها حين رأت عين ياسين تننظر إلىَّ ،تخيلته فى ذلك المكان ينظر إلى مبتسما تداوى إبتسامته ذلك الألم بداخلى وتنير ظلمة قلبى ،وبالصدفة رآنى أحد الفلسطينيين الذين حضروا زفافى تعجب من وجودى وحدى ،ولمَ لم أزورهم مجدداً مع "ياسين" كدت أن أخبره أننى لا أعرف مكانه لكنه أخبرنى أن أحدهم قد عاد من فلسطين وقد رأى "ياسين" فى حيفا فربما ذلك سبب مجىء لوحدى إلى المغرب ،لم أستمع لباقى حديثه .

تذكرت تلك الرسالة التى عثرت عليها بثياب "السيد عمران" فانتفضت أبحث فى ثيابى عنها ،فتحتها لكن الخطاب بداخله كانت ورقه بيضاء لا بقعه حبر فيها ،فأدركت أنها مكتوبه بالحبر السرى فقطع أمل العثور على خيط الوصول لـ "ياسين فقرأت الطابع الملصوق بالظرف كان طابع من فلسطين ،فقررت أن أذهب إلى هناك أبحث عنه فى كل شبر على الأرض لأجده ،مضت أشهر لم أجد فيها بصيصَ أمل لأجد الراحلين عنى ،الشوق لهم يمزق قلبى فالراحلين جاذبيه فى قلوبنا لهم لن تنتهى بل تزداد الجاذبية برحيلهم ،وضعت قدمى بفلسطين تلك الأرض المقدسة التى يتنازع العالم لأجلها ما أن وضعت قدمى بها حتى قبضت بيدى على حفنه من ترابها أشم رائحها قداستها التى يتنازع الجميع عليها لكننى شممت رائحه الدماء المختلط بجذورها ،رأيت بين ثنايا تاريخها ظالمين جبابرة ومظلومين كلاهما تحت تراب تاريخها وأرضها نائمون ،رأيت معاناة أن تسلب الحياة منك وأنت فيك الحياة ،رأيت ذل الرجال ونساء تسلب وتهان وأطفال لا فرق بين ما يعانون منه وما يعانى منه الكبار ،الكل يحمل حقائبه على رؤوسهم ويرحلون على أقدامهم ،بينما بيوتهم ومجدهم وتاريخهم وذكرياتهم كل ذلك يهدم خلفهم ،إهتزت الأرض عندما سلمت بريطانيا الشرطة فى"تل أبيب" لليهود وأعلنت التقسيم وأعلن عن قيام دوله إسرائيل ،شيدت الهاغانا جيشها من شباب لا يتعدى أعمارهم السابعه عشر ونظمت الجامعه العربية جيشاً من المتطوعين بقياده فوزى القادقجى وبدأت الشرارة بإحتجاج الفلسطينيون على التقسيم لثلاثة أيام ،كنت أمضى بينهم أبحث عن ياسين ،لكن فجأة تفرقنا أثناء تبادل النيران بين الذين يدافعون عن أرضهم وبين لصوصها ثم بدأ التطهير العرقى للعرب بقتل عصابات الهاغانا وأيتزل للقرى والتجمعات البدوية على شمال تل أبيب ثم بدأت خطواتهم تتقدم نحوى فى قريه بلد الشيخ قرب حيفا وإنهال الرصاص من حولى لا أدرى ماذا أفعل هل أهرب

إليهم أخبرهم أن بين من تصوبون رصاصاتكم إليها يهودية لأتخذ من هويتى درعاً أحمى تلك الأسر المنكوبة التى تباد عن بكرة أبيها ،لأُسكت تلك الصراخات المدوية لأحقن ذلك الدم المنثور،لقد إرتويت يا فلسطين بالدماء حتى لم تعد تنبت أغصان زيتونك بالماء .

يناير١٩٤٨

تحولت إلى كيان عربى لا فرق بينى وبين أى مرأة فلسطينية تهرب بذاتها لتنفذ نفسها وأولادها كنت أرى فى أطفالهم طفلى الذى لم أره، وأزواجهم زوجى الذى حتما هو أحد أعضاء كتبيه قائد الثورة "عبدالقادر الحسينى" ورغم المقاومه ألا أن بريطانيا دعمت اليهود بإعلان أن المناطق التى تحتوى على الأغلبيه من الفلسطينية أو اليهود فسيتم تسليمها لأصحاب الغلبة فيها فقامت الهاغانا بإبادة العرب فى بعض القرى لينزاحوا عن قراهم وتصبح خالية وتؤول إلى اليهود بسيطرتهم عليها حتى كادت قرى كثيرة تُباد عن بكرة أبيها، فشيد كتائب من الجيش بقيادة "فوزى القادقجى" لإنقاذ تلك القرى والمدن لكن بريطانيا لم تمهل العرب لحظة ليلتقطوا أنفاسهم فقد سحبت رداءها عن القضية بعدما مهدت الأرض لسرقتها وسرقة تاريخها وإبادة أهلها وإجبارهم أن يخرجوا من ديارهم رعبا وخوفا .

سرقت بريطانيا بكارة الأرض وألقت بها امرأة تلفظ أنفاسها الأخيرة بين نزاع الهاغانا المسلح ودفاع العرب ومهدت الأرض لوحدات الهاغانا من الكارميلى والبلماح بإحتلال القرى حتى وصلوا إلى قرية القسطل التى سقط فيها قائد المجاهدين لم تتمهل عصابات ايتزل وشيترون لحظة ؛ففى اليوم التالى لموت قائد المجاهدين قويت شوكتهم وارتكبوا مذبحة تشهد لها الأرض (مذبحه دير ياسين) ،فى تلك اللحظه شعرت أن ياسين هو من يذبح بيد أبناء جلدتى وليس أبناء الأرض فقط من يقتلون ،كان إغتصاب العصابات للأرض فلسطين تتوالى من معركه وراء الأخرى فلا تفصل سوى عدة أيام بين المعركة والأخرى وربما لا تفصل بينهما أربعه وعشرون ساعة كإعصار يريد إبادة دولة عن بكرة أبيها ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا إلى المناطق التى نزح إليها الفلسطينيون لإبادتهم إبادة كاملة فى عملية "ماتاتى" (المكنسة بالعبرية) لكنس الأرض بمن عليها من العرب بقنابل الهاون حتى إنهارت المقاومة ،نجحت بريطانيا بالقضاء على جيش فلسطين بالإنتداب ومساعدة اليهود فى الإستيلاء على كافة الأحياء بفلسطين فى القدس الغربية التى إحلتها بريطانيا بقواتها لتقدمها على طبق من ذهب ليقضى اليهود على أهلها ،كنت ممن يصرخون كنت أظن أن صراخى سيخرس تلك الأفواه التى تلقى برصاصها فى صدور الصغار ،أدركت أن فقدان صغيرى لا يقارن بفقدان هؤلاء الناس لأرضهم..رأيت امرأة تحتضن أولادها القتلى حولها كأزهار ذابلة وأخرى تحتضن رضيعها الذى قتل برصاصه وآخر يصرخ لا يدرى أين أمه ،لا أدرى أيصرخ خوفا من النيران حوله أم لفقدان أمه ووطنه "رأيت فى أرضك يا فلسطين ينابيعاً من الجنة فى الصغار وجيوشا من الجن فى نسائك وأسود لا تخاف فى رجالك رأيت فى حجارتك قداسة وفى أرضك مسك وفى سمائك أرواح مقدسة تزيدها ضياءً ونوراً .

إقشعر قلبى من الفرحه عندما إنتفض العرب لإنقاذ عرضهم بفلسطين الجيش اللبنانى والأدرنى اللذان حررا بعض القرى لكن كان ضحية ذلك الأسرى الفلسطينيين الذين سقطوا فى

يد اليهود فقتلوهم مكبلين عن بكرة أبيهم انتفضت العراق ومصر التى عبرت بجيشها ومجاهديها الذين تكون أغلبهم من جماعة الإخوان المسلمين ،دب فى قلبى أمل أن ينتهى ذلك الصراع وتحقن تلك الدماء لكن إنهار كل شىء فى عملية (شوتير) التى وقف فى مواجهتها أقوى خمس قرى فلسطينية "قرية إجزم "وعين غزال" وجبع "وكفرلام" والصرفند" التى شكلت خط دفاع مشترك وصمدت رغم شح السلاح بها لكن فى النهايه سقطت وسقطت معها فلسطين ،بنى اليهود دولتهم على دماء الأطفال وليس على أموالهم وألاعيبهم وأبطالهم الزائفين فقط ،قضيت عام أترنح بين رصاصة طائشة وقذيفة هاوية وعصابات تذبح دون رحمة ،يوم ألتقط فيه أنفاسى بأمان ويوم أنقذها من تحت القذائف والحطام ،أدركت لما لقبنى "ياسين" بـ " إيليا ميلين " ..ربما لم يقصد أن يلقبنى أنا بذلك الاسم بل فلسطين !!..أجل كان ذلك الاسم الذى لقب به وطنه وليس أنا فقط ، فـ إيلياء هو اسمها القدس وميلين هى التى تتبختر بمشيتها أردكت المعنى الحقيقى لها هى الأرض التى يتمختر تاريخها بين الحرب والسلام كما ذكر ،لم تعد فلسطين تدعى بفلسطين بل بـ (إيلياميلين) ،إستمريت فى التنقل فى حيفا أبحث عن خيط يوصلنى بـ "ياسين" فجأة إنطلقت قذيفة بيننا وجدت نفسى بين ثنايا حطام المنازل ومن حولى النساء يصرخن لا يعلمن إلى أين يلجئون لينجوا بأنفسهم وبصغارهم ،فجأة ظهرت مجموعة من الرجال يحملون السلاح ظننت فى بدء الأمر أنهم من عصابات اليهود يقتنصون كل من يقع تحت أعينهم لكنهم حملوا النساء المصابات والأطفال بعيداً عن الضرب وفجأة سمعت صوتاً لأحد الملثمين يأمرهم أن يهربوا فى الإتجاه الذى يشير إليه ،تسمرت مكانى أنظر إليه متجاهله انطلاق الرصاص من حولى ،أستطيع أن أميز صوتك من بين صرخات العالم وأصواتهم ..وهيبة حضورك وهيئتك الجسمانيه من بين البشر ،رغم أن أعيننا لم تلتقِ لكن وجد قلبى السبيل للقاءك فأحسست به بين نبضات الخوف فى قلوب البشر ،إقتربت منه على غفلة منه ثم فجأه إلتقت أعيننا ،رأيت فى إتساع عينيه المندهشتين المصدومتين دمعة لامعة أنارت تلك الأعماق المظلمة بداخله انطلاق الرصاص من رأى أهله عائدين من الموت ،أزحت اللثام عن وجهه فرأيت فى تصاعد أنفاسه براثن لثائر وبركان من الغضب بقلبه يريد أن ينفجر متحرراً فاحتضنت رأسه ألقيت به فى أحضانى و بأدمُع كطوفان موسى إنطفأ بركان الغضب ،لكن فجاه أطلقت قذيفة أخرى فتناثر كلا منا بعيدا عن الآخر وأعمى الغبار عينى فلم أعد أراه فجأة امسكنى أحد الرجال ودفعنى فى الأمان نحو النساء الأخريات ،حاولت أن اهرب من بين يديه أبحث عن ياسين لكن لم أرَ أى أثر له أصابنى الشك أن تكون أهوال الحرب قد أثرت على عقلى فأصبحت أهزى لم استفق من تفكيرى إلا على صوت إحدى النساء تصرخ فقد نفذت شظيه جراء الإنفجار إلى جنينها لا أدرى أكانت تصرخ خوفا أم ألماً حتى كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة ،فأسرعت مع الآخرين إلى المركز الصحى برفقة بعض الرجال الذين إرتعشت قلوبهم حزنا ،تطوع الأطباء من المستشفيات إلى المركز الصحى حتى الذين مازالوا صغار لم يطعنوا بعد فى مهنة الطب كانوا يشاركون بما استجمعوه من دراستهم ،كنت أرى الأطفال يصرخون سيدى أنت ماهر فى حياكة الجروح فهل تستطيع حياكة روح أبى بجسده ليعود لى والى الحياه مرة أخرى! ،أدركت أن ما تعايشته فى قراءة مذكرات ياسين ،لم تكن المشاعر الحقيقية ،فالذى يقرأ عن الحرب ليس كمن عاش فيها فعشت كل لحظة فقدان مروراً بها تذوقت تلك الغصة فى قلبى حين فقدت أمى مثلما فقدوا أمهاتهم وروحى التى تمزقت حين فقدت طفلى وعائلتى ورفاقى الذين إختفوا عن حياتى كقطر ماء فى البحر فلا صراخ يعود به الحق ولا ندم يعود لنا من ضاع منا ،رأيت قهر الرجال فى صراخهم

يتوسلون لإنقاذ أبنائهم وإنقاذ تلك المرأة الحامل وطفلها فأسرعت إليها كالآخرين تفقد الطبيب نبضها فهزَّ رأسه يأساً إنها فارقت الحياة !، شعرت بحطامى الذى حاولت ترميمه مراراً بالعثور على طفلى وزوجى لكننى عجزت ،شعرت بأننى شابة تحمل بأعماقها رفات امرأة عجوز ،وفى لحظة تخيلت أن ذلك الطفل بأحشائها هو طفلى يرجونى أن أنقذه إقتربت منها بيد مرتعشة وصوت صراخ طفلى يرن بأذنى فتحسست بطنها باكية لكن فجأة شعرت بشئ يتحرك كالذى يختنق ويرجوا النجاة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة! ،أصابنى الجنون أبحث عن شيء ما لإخراجه فسقطت عينى على مشرط جراحى فالتقطته وهممت أن أشق بطن تلك المرأة فجأة أمسك الطبيب يدى صارخا بوجهى متهما لى بالجنون فما أن تموت المرأة الحامل حتى يلحق بها طفلها ،لكننى تجاهلته لا أدرى كيف خطر على بالى أن أشق بطنها وأنا لاعلم لى بالطب ،لم يجد الطبيب مفر من مساعدتى وهويخبرنى أن الشظية إخترقت بطن الأم وربما أصابت الجنين وفى كلتا الحالتين هو ميت ،لكنى لم أتوقف كمن لا يسمع حتى ظهر أمامى غشاء رقيق فارتعشت يدى وتوقفت فجأه ،فجأة أمسك الطبيب المشرط وبحذر شقه فظهرت رأس الطفل ما أن حررها الطبيب حتى إرتعشت أفئدة الجميع بصراخ الطفل يعلن أنه مازال على قيد الحياة !،سمع صدى صراخه تهليل الجميع "الله أكبر..الله أكبر" يخرج الحى من الميت ،إرتعش قلبى وجسدى كأن من أراه هو طفلى ،نظر الطبيب إلى عينى متعجباً متسائلاً

: كيف علمتى أن الطفل مازال حياً ،لكن سرعان ما تجهم وجه الطبيب حينما رأى الشظية قد إستقرت فى عين الطفل نظر إلى حزينا كانت يده ترتعش كلما اقترب لإخراجها ثم نزعها من الطفل بسلاسة ثم لحظات عاد ينظر إلى مبتسماً باكياً صارخاً..الله أكبر.. الشظية لم تخترق عينه بل حماها الله بقدرته واستقرت بالجفن فقط.. العين سليمه! ،مد يده لى بالطفل لأحمله كدت أن ألمسه أرضع حرمان قلبى من حمل طفلى بحمله بين اذرعى، لكن فجأة حال بيننا رجلاً أردكنا من صراخه أنه والد الطفل ،نظر الجميع إلى كملاك طاهر ولا يدرون أن الملاك الطاهر الذى يرونه هو السرطان الذى يلتهم هويتهم وأرضهم ،فجأة رأيت "ياسين" واقفاً من بعيد ينظر إلى بعينين مبتسمتين دامعتين كمن ينظر إلى النجمة الوحيدة بالسماء ،إقتربت إليه ثم فجأة ألقى بنفسه بين ذراعاى منتحبا ،ظن أننى أختفيت إلى الأبد عندما عاد فى تلك الليلة من القدس متلهفاً لرؤيتى ورؤية طفلنا لكن فوجيء بالمنزل ملىء بالجثث التى قام بدفنها سريعا ،أدرك أن ما حدث لا يمكن أن يخرج من بين يد "مراد شمعون" ورجاله فذهب إلى المغرب يبحث عنا فعلم من أحدهم بأمر مجيء إليها وأدرك إننى أبحث عنه أيضا.

سافر إلى بريطانيا وفرنسا لكن لم يعثر على شيء ،كلا منا كان يبحث على الآخر فى الإتجاه المعاكس إلى أن إلتقينا فى ميدان المعركه وعلى ارض النزاع ،ركع معتذراً متوسلاً أن أسامحه لتخليه عنى فى تلك اللحظة ،قصصت عليه تلك الأيام الكاحلة التى مررت بها ،قررنا أن نمضى فى مسيرة القضية والبحث عن صغيرنا ،حملت معه السلاح وحاربت ،ذقت كيف يكون شعور المرء عند إطلاق أول رصاصة له فى طريق الحرية ،كيف شعوره عندما تراق الدماء بيديه وخاصة دماء بنى جلدته..شعرت بالخيانة لكن خيانتهم لى كانت أعظم !، أصبحت كمن يعيش حياته متناقض مع الوجود والواقع، امرأة تقاتل على وطن ليس لها ومن أجل وطن لم تكن أبدا منه ولم تكن له .

فأصبحت كالذى يعشق الليل لكنه يعشق نسائم الصباح وإشراق شمسها ،يعشق الوحدة لكن قلبه يتراقص فرحاً بالأنس ،يعشق شعوره ببرودة أنامله فى ليالى البرد القارسة لكنه يحتضن دفء أشعة الشمس بقلبه وينتظرها ،أصبحت الشئ ونقيضه والشرق بغروبه والغرب بشروقه أصبحت الأنهار العذبة وينابيعها الجافة المالحة و الصحراء الجرداء وخضرة الوادى اليانعة و نسائم الصباح وضباب الصيف اللذعة و الأمل و المستحيل وأصبحت أنا الحياة وأحمل بين طياتى ترانيم الموت ،وكما عانيت من ليال كاحلة ثقيلة كأنفاس تعاند الموت من توديع جسدها ،كان "ياسين" يعانى أيضا!، فقد كانت كوابيسه تؤرق نومى أحاول أن أضمه إلى دفئى كابحة تلك الكوابيس ،لكن لم أستطع كبح صراخه معتذراً ليونس لانه نكس بوعده له عندما وعده ان يحميه ويتلقى الرصاص بصدره قبل أن تصيبه ،لكنه لم يستطع أن ينقذه من رصاص أبى ،كل ما أستطاع فعله هو أن يحافظ على حياة زملائه فى المنظمة ويرسلهم بعيداً عن أعين جواسيس أبى ومنظمة الإغتيال اليهودية ،مضت ثلاث سنوات تركنا فيها العالم وحملت السلاح للدفاع عن ايلياميلين .

وفى عام ١٩٥٠إنهار كيان الطوائف اليهودية فى مصر وغيرها من الدول العربيه بسبب التجسس وهجمات العرب العابرين للحدود وتدمير متلكات اليهود فكان الرد الإنتقامى قاسى للغايه من إسرائيل وزاد أوج نارها فى أرض " إيلياميلين " ،فى إحدى الليالى بعد صلاة الفجر سمعت صوت اطلاق الرصاص لم يعد يفزعنى صوت إطلاق الرصاص فقد إعتادت عليه أذنى كموسيقى باريس التى أشتاق إليها ،لكن تلك المرة شئ ما أهتز بداخلى شعرت أن هناك عاصفة قادمة .

لن تهدأ ألا بعد أن يحدث أمر ما ،إتجهت إلى خارج المنزل فرأيت كروان يغرد حولى فجأة إنقطع صوته وهوى على الأرض بجوارى فقد قتله أحدهم برصاصة! ،إقشعر جسدى وتصاعد الخوف بقلبى فموت الكروان تنبأنى بشيء قد يحدث ولا تحمد عقباه ،فجأة ضمنى "ياسين" بذراعية قائلاً

:يبدو أن أحدهم أصابه بالخطأ ،ثم إلتقطه نظر إليه لكن عينيه أخبرتنى أن هناك شئ ما أكتشفه للتو، شئ جعله ينظرمن الإتجاه القادم منه الكروان والرعب فى عينيه نظر إلى قائلاً

: إنتظرينى هنا...لن يطول غيابى ،ثم ركض مسرعاً ،نظرت إلى الكروان الملقى على الأرض وفجأة إهتز قلبى مرتعبا فركضت إلى الداخل أحمل سلاحى ثم ذهبت إليه فجأة إنطلق الرصاص من حولى إحتميت بأحد المنازل واطلقت رصاصاتى التى تعرف صديقها من عدوها جيدا!، فجأة إنقلبت الأرض رأساً على عقب بالقذائف ،جمعت شتات نفسى ونهضت أحمل سلاحى أبحث عن "ياسين" ،صرخت باسمه لكنه لم يسمعنى فوجدته قد وضع اللثام على وجهه من تراب القذائف ويقاتل، لم يسمع صراخى فجأة رأيت أحد القنابل ألقيت تحت قدمه دون أن يشعر ،شعرت أن أنفاسى قد هربت من صدرى وهربت الكلمات منى كهروب الشياطين من المحراب وانعقد لسانى فركض إليه أحميه بجسدى أصبحت على بضع خطوات منه فجأة زلزلت الأرض من تحت قدمى وإرتفع جسدى فى السماء وفى غمضت عين هوى على الأرض ،لم أرَ سوى غبار القذيفة التى ألقيت صمت أذنى عن السمع وكأن أنفاس العالم قد نفذت ،وما أن إنقشع الغبار حتى رأيت ياسين راقداً محتضناً سلاحه مغطى بالدماء والغبار ،حاولت النهوض لكن قدمى لم

تحملنى فزحفت إليه بيدى كدت أن ألمسه بيدى الأخرى لكن فجأة لم أجدها ملتصقه بجسدى بعد! ،تضاربت أنفاسى فى صدرى كأجيج القاذفات صرخت إلى ياسين بذلك الألم الذى يشتعل بجسدى لكنه لم يجيب ،رأيت ذراعى بها أسوار أمى ملقاة بجواره ،أيتها الذراع المقتطعة منى فلتلتمسى من الحياة نبضة تتحسسى بها كروان روحى إن كان ميتا فأحييه وإن كان غائباً عن الوعى فأيقظيه ،أيتها الذراع التى كانت منى يوماً لا ترحلى بعيدا وتتركيه فالترافقيه إلى نهايه الطريق ،فجأة إنطلقت قذيفة فتحول كل شئ إلى مصير مجهول.. !

فجأة إنتفضت "ميلين" صارخة تقبض على ذراعها المبتور من الألم ،صدح صوتها فى جوف الليل ،ثم هدأ توقف صراخها تدريجياً وهدأت أنفاسه المتلاحقة عندما وجدت نفسها فى غرفتها المظلمة إلا من ضوء القمر ،وبعينين مرتعبتين باكيتين ظلت تبحث عن الغريب ،وفى لمح البصر رأت الكروان يطير فوقها ثم إنطلق من الشباك ،فأسرعت تراقب رحيلة لكنه إختفى كأن السماء قد إبتلعته !،لا تدرى هل ما كانت به الآن حقيقة أم خيال؟! هل ذلك الغريب قد ظهر أمام عينيها أم أنه زارها فى المنام؟ وما حدث كان مجرد حلم عابر !، لا تدرى لقد غلبها الألم كانها فقدت ذراعها للتو ،فألقت بجسدها على وسادتها باكية .

بريطانيا ٢٠١٩

إنسدلت الدموع من بين جفنيه وأصدر صوتاً كالنحيب فجأة سمع صواتاً متضاربة قام أحدهم يناديه باسمه ،"سيد ماك" هل تسمعنى ،إنقشعت تلك الغمامه عن عينيه بإنقشاع ذلك الضوء المسلط فيها فسقطت عينيه على ياسين يقف فى ركن بعيد بالغرفة يتألم كأن الموت ينهش روحه من بين أضلعه ،إلتقت أعينهما فانعكس بعينيه ذلك الألم الذى يفتك به ثم فجأة رآه ملقى على الأرض مغطى بالدماء والغبار ،غلبته عينيه فأرخت جفنيهما فتصاعد صوت الطبيب صارخا أن يسرعوا بإحضار جهاز الصدمات الكهربائية وفجأة هدأ كل شئ .

بعد أن مضى كم مجهول من الوقت بالنسبة له، فتح عينيه فوجد حوله طبيباً وممرضتين يتبعان إستقرار حالته ،كانت عينيه تسال أين هو ؟! ،لقد كان الآن بجوار "ميلين" ملقية على الأرض بذراعها المبتور و"ياسين " ذلك الفتى الذى لم يعرف له اسم قبل الآن، مغطى بالدماء وغبار المعركة ،تجاهل سؤال الطبيب له إن كان يستطيع سماعه فقد كان صوت الرعد يدوى وأنوار البرق تضئ الخوف فى القلوب المظلمة ،ألقى نظرة حوله فسقطت عينيه على إنعكاس ضوء البرق من النافذة على وجه "أليكس" أمعن النظر إليها فرأى فى وجهها صورة "ميلين " لثوانٍ ثم عادت عينيه لرؤية "أليكس" التى إلتفتت إليه بعينيها التى تخبره كم من الدموع قد إنهمرت من أجله الليلة ! ،جلست "أليكس" بجوار سريره تقبل يديه و تحمد الله أنه عاد إلي وعيه ،سألها "ماك" عن ما حدث فهو لا يتذكر شيئاً ،فأخبرته قائلة:

: لقد وجدتك فى غرفة المكتب.. ظننت أنك نائم لكنك كنت فى غيبوبة ..آسفه للغاية لأنى تركتك ولم أعتنى بك جيدا ،آسفه لأنى لم أعلم عن مرضك ..كنت أظن أنك تهزى من مرض نفسى ،لكن إكتشف الطبيب (جان) حقيقه الأمر ،وتلك التهيؤات حول الشاب العربى والسفر عبر الزمن.. كان سببه ذلك المرض ..أنت مصاب بسرطان المخ..قبلت يده وربتت عليه قائلة

: لكنى سأظل معك إلى الأبد إلى آخر نفس فى حياتى .

وقع الخبر عليه كنسمات حارة لا تزيد من قلقه فى شىء بل لم يأبى إلى أى شئ لا إلى مرض أو موت إعتدل فى جلسته وطلب منها أن تعجل فى إجراءات خروجه من المستشفى الليلة قبل الغد ،فلم يعد لديه الوقت الكافى ،نهض من سريره إلى ملابسه بالجوار وقفت أليكس تنظر ماذا يفعل فحثها على أن تساعده فى إرتداء ملابسه نفذت كلامه دون أن تتفوه بكلمه كنجدة تلبى النداء الأخير لمن يحتضر فى مرضه ،لكنها إتجهت به إلى غرفة " الطبيب جان " مترجية إياه أن يقابله قبل أن يغادر وقعت كلمات الطبيب عليه وقع الذى يستمع إلى نعيق الغربان يريد أن يتخلص منه بأسرع وقت حين أخبره أن ما حدث له سابقاً كان بسبب السرطان متعجباً كيف لم يظهره آخر فحص قام به منذ أقل من شهر نظر إليه "ماك" قائلا

: ألا تؤمن بالأرواح ياصديقى جان؟ أشار إلى رأسه قائلا..هناك جزء صنوبرى فى المخ ..تلك القطعة التى لا تمثل سوى نقطه فى مخ الإنسان تنقلك عبر الزمن لا لا.. لا تنقلك بل تنقل روحك ..ألا تؤمن بذلك ..ألا يعلم الطب ماهيه تلك القطعة؟!

تنهد جان وعقد كفيه أمامه على المكتب قائلاً

: لم يتوصل العلم إلى الآن أن يعرف الوظيفة الحقيقية لذلك الجسم ،لكن إجتمعت البحوث العلميه على أنها تسبب سرطان المخ بنسبة ٩٠% إلى جانب الزهايمر.. والجزء الصنوبرى لديك كان نشط للغاية ويرجح إنه سبب السرطان الذى تعانى منه ياصديقى ....

نظر "ماك" إلى "جان" مبتسما بسخرية قائلا

: وما زال العلم يعجز عن تفسير وهم الروح ،وبيننا حمقاء يؤمنوا بالعلم إيمان راسخ رغم أن العلم مازال عاجزاً عن تفسير الكثير ومن المثير للدهشة أن الأطباء الذين لا يؤمنون إلا بالعلم فقط يقفون على القبر متمنين الرحمة لتلك الروح المدفونة رغم كفرهم بالروح ياصديقى جان!! ،نهض مغادراً دون وداعاً فنظرت أليكس إلى الطبيب وهوت رأسها مبتسمة فهز رأسه لها متفهما ما تعنيه نظرتها بأن لا يغضب منه فتلك أيامه الأخيرة لكن الطبيب جان أعاد النظر بينه وبين نفسه عن إلحاده وإيمانه الراسخ بأن ليس هناك قوة أقوى من العلم وأن العلم هو الإله الذى يجب أن يعبد فى العصر الحديث.!

ما أن وقف خارج المستشفى حتى تنفس الصعداء متجها إلى ذلك المطعم حيث مكث فيه مع ياسين قبل ،جلس فى نفس المكان الذى جلسا فيه سويا متجها بنظره من زجاج المطعم إلى خارج يتذكر تلك اللحظة التى أحس فيها بؤنس ياسين وحضوره الذى ادفأ قلبه ،جاءت الجرسونه مبتسمة مرحبة بهما لكن "ماك "لم يعير لأحد الإنتباه كادت أليكس أن تطلب شيئا لهما لكن الجرسونه أسرعت قائلة

:هل أحضر لكما نفس طلب المره الماضية ،عقدت أليكس جبينها متعجبة ،فأكلمت الفتاة قائلة

:تلك الوجبة التى طلبها السيد "ماك" وصديقه هل أحضرها لكما؟ ،هزت أليكس رأسها بالموافقه فغادرت الجرسونه تاركة لعقل أليكس الشكوك والتساؤلات حول الأمر ،ثم مدت يدها تحتضن يد ماك فقال وهو مازال ينظره إلى الخارج

:أخشى أن أخبرك قصة ذلك المطعم فتصبح وهم هى الأخرى ،شعرت أليكس بالأسف ،فنظر ماك إليها قائلا

: ألا تؤمنين بى؟ لقد أقسمتى أنك لن ترحلى عنى أبداً ..أترجاك أليكس أن توفى بوعدك لى..أريدك أن تؤمنى بى ..أنا أيضا لا أصدق ما يحدث لى ..ولكن لا أظن أن ما أراه محض أوهام أو تهيؤات جراء المرض ..إن كانت هذه أمنيتى الأخيرة فى الحياة فأنا أريد أن أذهب إلى مصر نبحث عن المكان الذى رأيته فى سفر روحى ..تلك أمنيتى الأخيرة ..هل تقبلين ؟!

لم تجد أليكس جوابا سوى الصمت!، نهضت أليكس تغسل يدها بعد تناول الطعام فاصطدمت بالجرسونه فبادرتها بالإعتذار ،ثم همت بالمغادرة لكن أليكس إستوقفتها بسؤالها

: هل تصفين لى الصديق الذى أتى مع السيد ماك؟

حاولت الفتاه التذكر ثم قالت : أجل تذكرت فى البدايه طلب السيد ماك وجبتين له ولصديقه لكن الغريب أنه لم يكن هناك أى شخص يجلس معه ،وضعت الطعام ثم انصرفت وعندما عدت إليهم وجدت الأطباق فارغة وسط سعادة السيد ماك بمدى روعة الطعام ،ظننت فى بادئ الأمر أن

صديق السيد ماك قد تناول وجبته وهم بالمغادرة ،لكن حدث شئ غريب فقد لمحت شاب لا يحمل ملامح بريطانيه يغادر معه من باب المطعم لكن الغريب أن الشاب ظهر لبضع ثوان ثم إختفى فى لحظات ،فظننت أنه انعكاس أحد المارين بزجاج الباب

:. أتتذكرين ما اسم صديقه؟

:لا أذكر أنه ناداه باسم.

إنصرفت الفتاة تاركة أليكس تنظر إلى زوجها الذى ما زال ينظر من زجاج المطعم الى الخارج، لوهلة أصابتها الحيرة أكثر فلا تستطيع إثبات وجود ذلك الشاب ولا تستطيع إنكاره كأنها تقف حائرة بين الحقيقه والسراب لا تبدوا لها الحقيقه حقيقه بل سراب والسراب لا يثبت حقيقته أنه مجرد سراب! ،وقف ماك فى منتصف المنزل صامتا تتأمل عينيه كل ركن به، يتحول الحاضر فى عينيه إلى الماضى يرى "ميلين" تنزل على السلم متجه إلى "ياسين" حيث ينتظرها بالمعطف يضعه عليها ثم يتجهان للخارج فجأة إلتفت ذراع أليكس محتضنة قائلة

:المنزل يشتاق إليك مثلى

إلتفت إليها قائلا : سأذهب الى مصر

إلتفتت إليه أليكس متعجبة من ذلك القرار قائلة

:ألا يمكننا أن نترك ذلك الأمر إلى أن يتم شفاءك

: سأذهب لتحضير حقائبى .

:الآن؟!.. لماذا؟! لا يمكنك أن تجازف بحياتك من أجل السفر ..عليك تلقى العلاج و..،قاطعها قائلا

: لنكن واقعيين يا عزيزتى ..ذلك العجوز الذى تحبينه مازال ينبض فيه الشباب لكن المرض لن يسمح له أن يعيش بروح ذلك الشباب فى جسده الهزيل ..فقد حدد لى موعد مع الموت على أى حال.. سواء تلقيت العلاج أم لا لن يغيرذلك من الأمر شئ ،لا أريد الموت و روح المغامرة مازالت تتوهج بقلبى ،يقال أن كل انسان يخلق لرساله ما ..ما أن يحققها حتى تعود روحه إلى الله لينعم أو ليشقى ،وعلى إتمام رسالتى قبل رحيلى..

كنت فى صغرى أتسائل ما هى الحكمة من وجودى؟ لماذا خلقنى الله فى قلب المعاناة ؟ لم أنعم فى صغرى بلحظات سعيدة ،لقد قضيت حياة متضاربة فقدت فيها ملذات الحياة التى سعد بها غيرى ،وفقدت فيها كل عزيز على قلبى ،لكن فى النهايه أدركت أن تلك المعاناة التى عشتها هى الطريق إلى هدف أسمى لم ولن يعيشه انسان ترعرع فى الرخاء ، أتعلمين.. أنا ممتن إلى كل لحظة حزن عبرت خلالى لتسكن قلبى لأنها فتحت له أبواباً مغلقة للآخرين ،لكننى أدركت ذلك متأخراً ..متاخراً للغاية ،لكننى ممتن لأننى لن أموت دون إدراك قيمة ما لقيته فى بحياتى ،كنت أظن أن الله غير عادل لأنه خلقنا فى تلك الحياة التى تشبه الجحيم لتعذيبنا أو ربما لرغبته فى سماع أصواتنا البائسة وهى ترجوا منه النجاة والمغفرة ،لكن رأيت فى أقدارنا التى يرسمها

لحياتنا لغز محير لا يستطيع عقلى العاجز عند حدود فكره أن يفهمها ،لكن ما يدبره الله يريح قلبى بطريقة عجيبة تثير دهشتى! ،ساد الصمت بينهما فأسرع إلى غرفته يجهز حقائبه لا يدرى إن كان يقوم بالأمر الصحيح أم الخطأ لكن العمر لم يتبق منه الكثير لنترك عقلنا للتكهنات ،إتبعته أليكس معارضة لذهابه تفرغ الحقائب كلما أعدها ،فجأة اخرج من جيبه صورة "ميلين" ووضعها بيدها فنظرت إليها بتعجب ،ثم جلس "ماك" على طرف السرير بأكتاف متراخية وصوت يأس قائلاً

:تلك الشابه تمنت لو أنها عانقت زوجها العناق الأخير قبل الرحيل .تحدت العالم وتركت موطنها وهويتها خلفها من أجله ،تلك الشابه زارتنى كطفلة أخذت بيدى إلى عالمها ثم إختفت من حياتى ليظهر ذلك الشاب العربى الذى يدعى "ياسين" عاش معنا هنا فى المنزل ،ما كنت تظنيه شبحا كانت روحا طيبه تعيش بيننا هنا ،لم تتمكنى من رؤيته رغم إيمانك بالأرواح والمعجزات فى الكتاب المقدس!، لكنى رايته رغم كفرى بمن خلق الأرواح !، المعجزات لم تقتصر على عهد الأنبياء أو المسيح ،بل مستمرة يرسلها الله لنا لكننا نعارضها باسم العولمة ..أخبرينى يا اليكس.. كيف حصلت على تلك الصوره وأنت لا تفارقينى لحظه؟! أخيال أيضا أم هذيان من عقلى المريض ،كدت أن أصل إلى الحضيض لولا تلك الشابة وزوجها ،أرجوك يا أليكس لا تجعلينى أودع حياتى وبقلبى شيئاً ينبض بالحياة

:الشرق الأوسط ملىء بالثورات يأكل الغضب تلك الدول واحده تلو الأخرى يذبحون بعضهم البعض وحكومات تقتل شعبها ولا تأبى أن كان صغيراً من يقتل أم كبيراً ،أظن أنك إن لم تموت بسبب المرض فستموت هناك وسط تلك المجازر

:لا خوف من الموت فالأطفال تموت فى أرحام أمهاتهم ،كما أن مصر هادئة من الثورة الآن ،حاولت أليكس أن تهدأ نفسها فأخذت نفساً عميقاً ذيل زفيرة بسؤالها قائلة

:هل لديها اسم؟

:أجل.. ميلين ..وزوجها ياسين

:تبدوا لى صوره قديمه للغايه فهل مازالا على قيد الحياة ؟

:لا أدرى ،كان هناك حلماً يتردد على عقلى أن هناك عاصفة تقتلع نبته صغيرة من جذورها فى الصحراء ذلك الحلم رأته ميلين أيضاً ،تلك النبتة هى طفلهما اللذان حرما منه وحرم منهما قبل أن يحددوا جنسه أصبى أم فتاة! ،لقد أدركت لما وهبنى الله تلك الخرافات كما تعتقدين

:لتجد طفلهما؟! ..أم لتجد الزوجين؟!

:لا أعلم الاجابه ، لكننى أعلم اننى سأعثر على إجابه سؤالك فى مصر.. وعلى الذهاب هناك أن لم ترغبى فى مرافقتى فلا بأس ،هم أن يعد حقائبه فقامت أليكس بإخراج حقيبتها أيضا وأعدادها ،إبتسم "ماك " وأدرك أنها لن تتخلى عنه مهما حدث.

أؤمن أن فى الوعى ألم لا تتحمله الروح وربما يقودها الوعى إلى الموت لذلك خلقت الحقائق من قلب الأحلام لتمهل الروح الفرصة لتستعد لتقبل الألم !

شعر بالدفء فى أعماقه عندما وطأت قدمه مصر ،أحس انه كالذى عاد الى وطنه بعد غياب طويله للغايه ، لم يمهل نفسه وقت ليستريح من عناء السفر ،فاستعان بالمرشد السياحى الخاص بالفندق وأخبره أنه يبحث عن منزل قديم فى مكان عاش فيه اليهود، فأخذه المرشد إلى كل مكان وطأت به قدم اليهود ،حتى إقترب من الحارة التى رأى نفسه واقفا فيها مع "ميلين" وهى ترتدى زى الرجل العجوز ،ما أن دخل المكان حتى أسرع إلى منزل الذى أصبح يعرفه جيداً ،تحسسه ثم قال مندهشاً

: لا يعقل !!..نظر الى اليكس قائلا

: هذا هو المنزل! أنه كما رأيته تماما بكل تفاصيله! ،هذا منزل أمها التى عاشت فيه فترة من طفولتها وأحتمت فيه بعد عودتها من بريطانيا ،تعجبت أليكس والمرشد الذى شغفه الأمر فسأل اليكس

:من الذى يقصده ؟،سمعه ماك فأخبره أن المنزل ملك لامرأه يهودية هاجرته منذ زمن طويل ،تعجب المرشد مؤكداً كلامه قائلا

:كان هذا منزل أحد اليهود لكنه أصبح ملك الدولة فى أواخر القرن العشرين أثناء تاميم الحكومه المصريه لأملاك اليهود ذو الجنسية الأجنبية والذين عجزوا عن الحصول على الجنسية المصرية ،لكن حاليا يعمل بعض اليهود على إستعاده ممتلكاتهم مرة أخرى لكن لا أعتقد أن المنزل قد عاد لملاكه من اليهود .

عاد ماك إلى الفندق لم يذق طعم النوم رغم مرضه الذى يتثاقل عليه بل ظل مستيقظا طوال الليل ،يفكر فى سبب إختفاء ياسين ؟ وكيف سيعثر على "ميلين" فهى مثل الإبرة فى كومة من القش ،فجأة سمع صوت الكروان فانتفض مسرعا إلى شرفة الفندق ،إنشرح صدره وأدرك أنها علامة على أن هناك أمر على وشك الحدوث ، فارتدى ملابس فى عجالة ،تعجبت أليكس لذلك التصرف لم تمتلك سوى أن ترتدى ملابسها بسرعة وتلحق به، ظل الكروان يغرد كالمرشد يتبعه ماك حتى وصل إلى المنزل ،تسمرت أليكس مندهشة فقد كانت أبوابه مفتوحة والأنوار مضاءة بداخله!، إقترب ماك من المنزل لا يصدق ما تراه عينه، لقد نبض المنزل المهجور بالحياة ،لم يتردد ماك فى الدخول فاتبعته أليكس ..كان الظلام دامس فى بدايه الأمر ففتحت اليكس مصباح الهاتف بينما ماك كان يتقدم بخطواته ثقيله مضطرب القلب يتسائل عقله عن من سيراه فى المنزل أهى "ميلين او ياسين؟ ، فجأة فزع ماك عندما فوجىء بخروج رجلا غريبا لا علم له به من قبل ، عمره لا يتعدى الثالثه والثلاثون تقريبا طويل القامة ،رفيع المنكبين ،جميل الوجه ،وقف أمامه يساله بالعربيه :من انت ؟!

تسمر ماك مكانه ما أن راه لكن هدات نفسه عندما تحدث الرجل يساله عن هويته ،أسرعت اليكس تجيبه بالانجليزيه لكن فجأه عقد لسانها عن الحديث عندما تحدث ماك باللغة العربية قائلا

:أنا أبحث عن صاحبة المنزل..السيدة ميلين ..هل هى هنا؟!

تعجب الرجل وتصلبت أوصاله متسائلا

: من أنت؟!

دخل ثلاثتهم إلى المنزل حيث يجلس رجل عجوز ينظر من زجاج الشباك إلى خارج المنزل ،دخل ماك خلف الرجل وما أن رأى العجوز حتى تصلبت أوصاله وارتعش جسده واتسعت عيناه مندهشتين ،وقف الرجل العجوز يساله عن هويته لكن ماك تجاهل سؤاله واقترب منه إلى أن تقاربت وجوههم قائلا

:لا يعقل أن يكون ما رأيته حقيقة ..لا يعقل ..رغم أن ملامحك قد تغيرت كثيراً لكن أستطيع رؤيه ملامحك الشبابيه فيها ..أنت جونس..أليس كذلك؟

إرتعب جونس واضطربت أنفاسه المتصاعده يسأله :من أنت؟!.. لقد غيرت اسمى منذ أكثر من ثلاثين عاما ..لم يعد لذلك الاسم وجود ولا لصاحبه ...من أنت؟!

كانت أليكس تراقب ما يحدث بعينين دامعتين مندهشتين أيعقل أن ما يحدث الآن حقيقة ؟!..ما رآه ماك وقصة عليها طوال رحلتهم إلى مصر حقيقة؟! وكيف تعلم اللغة العربية ونطق بها كالذى ولد وعاش بين العرب؟! ، إكتفت اليكس بأن تجلس وتسجل بعقلها ما يحدث ،فقد جلس ماك وقص ما حدث معه منذ البدايه إلى النهاية إلى جونس ، لكن إنعقدت الألسن وتحول حديثهما إلى هدوء العاصفه حينما سأل ماك عن الطفل فتجهم وجه جونس وبكى بدموع نادمه على ماحدث خلال السنوات الماضيه حتى إنعقد لسانه من كثرت نحيبه و ما أن هدأ حتى قص ما حدث فى ندم قائلا

:كنت اكره ياسين الى الحد الذى اكره فيه لسانى عندما ينطق باسمه ،اخرج المنديل الذى به اثر شفايف ميلين تحسسه مكملا حديثه قائلا

:وعد ياسين ميلين أنه سيأتى فى موعد ولادتها كان "مراد شمعون" يريد الإنتقام من ياسين فى طفله ،لكنه لم يستطع فعل ذلك دون أن يؤذى ابنته ترقب موعد ولادتها بفارغ الصبر ليقتل ياسين وطفله أمام عينيه لكن آلام الوضع فاجأت ميلين قبل موعدها ،كانت عنقى بيد مراد فلم أستطع فعل شيء الا تنفيذ اوامره ،ما أن أنطلق صراخ الطفل حتى اقتحم رجال مراد المكان وقتلوا من فيه عن بكره أبيهم ،دخلت إلى غرفة ميلين كانت غائبة عن الوعى بجوارها طفلها أردت أخذها تاركا الطفل لمصيره ليموت جوعا لكن تصلبت أوصالى عندما حملت الطفل بين يداى ورأيت احد الرجال يصوب فوهة المسدس إلى رأسه ليطلق عليه النار ،وفى اللحظة الأخيرة إحتضنت الطفل وتفاديت اطلاق الرصاصة بقتلى للرجل ،أردت أن احتفظ بشيء من رائحتها إلى الأبد بما أننى لن أستطع الحصول عليها على الإطلاق ،فأنا أستطيع أن أعطيه هويتى اليهودية فكل من يولد من أم أو أب يهودى تعطيه إسرائيل الجنسيه الإسرائيليه والهوية اليهودية ،فقد أخذت إسرائيل أطفال أيتام من أطفال العرب من الملاجئ وقامت بتهويدهم ! وأصبحوا يحملون الديانة اليهودية والولاء لإسرائيل وهم يجهلون أصولهم العربية سواء كانت مسلمة أو مسيحية!

وفى الوقت ذاته ستحمل ميلين لى الجميل أننى حافظت على طفلها من الموت ،فحملت الطفل ورحلت إلى أستراليا وجردت من هويتى من أجل ذلك الطفل ، إستغليت حب كاميليا لى وأخبرتها أن ميلين قد لفظت أنفاسها الأخيرة أثناء ميلاد الطفل وسأكرس حياتى لأجله فإن

رغبت بالزواج منى فعليك أن تتبعينى إلى آخر العالم ونربى الطفل معا ، لم تتردد للحظة واستعطفت ذكرياتها بصديقتها مشاعر الأمومه بداخلها وأكملت مهمتها حتى لفظت أنفاسها الاخيره وهى تعلم أن مقابل رعايتها للطفل سأدفع ثمنه فى أن أعطيها الحب الذى ترغب فيه والذى لم يكن أبدا لها! ، كم هو مؤلم أن تدفع حياتك تحت أقدام من لا يحبك ..لكنه الحب ،وبذلك الحب عدت أبحث عن ميلين بعد ثلاث سنوات من إختفائى لكن لم أستطع العثور عليها..الحكومه المصريه قامت بتأميم جميع ممتلكات اليهود الذين لم يحصلوا على الجنسية المصرية غير حركات الإغتيال والتفجيرات التى إنتشرت ضد اليهود المؤيدين لدولة إسرائيل بمصر ،ثم الحروب التى قامت بين مصر وإسرائيل وبعد معاهدة السلام عدت ثانيا لأبحث عنها لكن رجال مراد لم يهدأ بحثهم عنى فى مصر فخفت أن يعرف مكانى ويؤذى الطفل لكن إنتهى الخطر بموت مراد ،فأصبحت أسافر إلى مصر كل سنة أمكث بها بعض الوقت أبحث فيها عن ميلين أو ياسين فالعثور عليه حتما سيوصلنى إلى ميلين لكن لم أستطع العثور عليهما مطلقا ،ألا أن جاءتنى أخبار تؤكد وفاة ياسين فى إحدى المعارك لكن سرعان ما جاءتنى أخبار مناقضة تخبرنى أنه أصيب واختفى بعد المعركه التى فقد فيها زوجته ميلين لكن لم أستطع العثور على أى من قبريهما! ولم أستطع العثور عليهما ولم أتوقف عن البحث عنهما ،أردت أن أحتفظ بكل شيء فيه رائحه ميلين فاستطعت استعادة المنزل من الحكومة المصرية بعدما دفعت ثمنه !، ليلتى هذه هى الليله كانت الأخيرة التى سآتى فيها إلى مصر ،فقد حصلت على المنزل ولم تعد صحتى تساعدنى على السفر فأنا لا أذهب إلى أى مكان إلا بمساعدة إبراهام الحارس الشخصى الذى قابلته والذى اعتبره كإبنى ،لا أظن أن وجودك هنا سيساعد فى العثور عليهما فقد بحثت قبل طوال عمرى لكن لم اجد اى دليل يخبرنى انهما مازالا على قيد الحياة..

..قاطعه ماك قائلا

: لكن الله له رأى آخر يا سيد جونس ، ما فشلت فيه يستطيع غيرك النجاح فيه .

وقف ماك يتأمل المنزل حيث عاشت ميلين بطفولتها القصيرة ،أصبح المكان هادئ فقد سكتت الألسن عن البوح بأسرارها ،وقف فى شرفه المنزل فهب نسيم رائع أتبعه صوت قرآن الفجر يتلى إقشعر جسده ، فجأة شعر بدفء أليكس ترخى برأسها على كتفه قائلة

: لا عجب أن الشرق به سحر رائع ،لكن ما هذا الصوت يشبه ترانيم وروحانيات

:إنه القرآن ..إستشعرى كلماته بقلبك ستشعرين أن العالم قد وضع بصدرك بل أن صدرك يتسع لمليون عالم من عالمنا

:أصدقت عندما قولت أننى أؤمن بالمعجزات رغم أن عينى لم تراها لكن اليوم رأيت معجزة ،كيف إتقنت اللغة العربية ؟وكيف عرفت السيد جونس وأنت لم تحظ برؤيته ولو لمرة فى حياتك؟!

:أنت لم تر ما رأيته ..لقد عشت فى عالم ياسين وتألمت بالمه رأيته وهو صبى صغير يحمل بندقيته كرجل بالغ الرجوله والقوة، تحدثت معه شعرت بما شعر به من ألم وتشاطرت معه ضحكاته وأطلعنى على أحلامه ومخاوفه وأسراره ،ضمدت جروحه وضمد جروحى ،لكن الوضع كان غريب مع ميلين لقد رأيت نفسى فى جوف طائر الكروان ثم سافرت إلى ماضيها

كشبح يتجول بين ثنايا حياتها كالهواء الذى تتنفسه ،فجأة إنطلق أذان الفجر ،إقشعر جسد أليكس قائله

:ذلك الصوت يزلزل قلبى كأنه النداء الأخير قبل أن ترحل الأرواح عن الأجساد..هل نستطيع العثور عليها؟

إلتفت ماك إليها متعجبا قائلا: نحن؟!

إبتسمت أليكس قائله

:أجل ..نحن..

انتبه ماك الى صوت عصا تقرع على الأرض تتبع خطوات من يمسكها ،نظر الى مصدر الصوت فوجد رجلا عجوزا يمضى بعيدا عن المنزل يرتدى جلباب وعمامه أحد اكمام عبائته مختفيه توحى أن ذراعه مبتور! ،نظر إلى أليكس مندهشا صارخا ..إنها هنا ..سيد جونس إنها هنا إنها على قيد الحياة .

أسرع الجميع إلى الأسفل ركض ماك خلفها حتى وصل إلى محطة القطار ثم فجأة إختفت عن نظره ،وقف يلتقط أنفاسه ثم تذكر نفسه عندما ركض خلفها إلى محطه القطار فى سفره عبر الزمن ،إنها نفس المحطه ! ، فجأة نظر خلفه حيث كان يقف على قضبان القطار لكنه وجد نفسه على الرصيف خلفه جونس وإبراهام وأليكس يلتقط كل منهم أنفاسه ،مضى يبحث عنها بين المسافرين فأوقفه جونس قائلا أنه لا يرى أى امرأة على الرصيف فهم يركضون خلف سراب ،أجابه ماك قائلا

:إن رأيتها فلن تراها كـ "ميلين التى تعرفها بل رجلا عجوز يرتدى جلباب وعمامه يتكأ بعصا فى يد واليد الأخرى مبتورة .

كأن سكين حاد قد وخز بقلب جونس عند سماع هذا الوصف كيف آل الأمر أن تتحول ميلين من امرأة عزيزة من أغنياء اليهود إلى عجوز فقير لا تملك سوى فتات الحياة!

فجأة إنطلق صوت قطار من خلف ماك فالتفت إليه خطر بباله ذلك القطار الذى كاد أن يدهسه فى سفره عبر الزمن أنه القطار نفسه ! ،فكر أن يكون ذلك القطار أول الخيط إلى ميلين فجأة بدأ القطار بالتحرك فقفز بداخل القطار مسرعا وسط هروله جونس وأليكس وابراهام يلحقون به داخل القطار ،سالت اليكس بإندهاش

:لماذا ركبت القطار فجأة ؟!، سار ماك بين عربات القطار وعينيه تتفحص الجالس والمار من المسافرين قائلا

:إنها هنا.... بالتأكيد هنا..

ظل مستمراً فى تفحص الركاب حتى شعر جونس أن ماك مرهق فطلب منه أن يجلس وبعد عناد طويل إستسلم بعد أن أصر الجميع عليه أن يجلس ،قرروا أنهم سينزلون فى المحطة القادمة ثم يأخذون قطار العودة ،شرد ماك بذاكرته إلى ياسين الذى إشتاق إليه ..تارة ينظر من

شباك القطار على المارين وتارة إلى الداخل حيث المسافرين الذين ينظرون إليه بعيون متعجبة ،كان التعب واليأس قد تخلل فى كل جزء بجسده ،فجأة تسمرت عينيه إلى ميلين ،لاحظ الجميع تسمر عينيه فاتجهوا إلى ما ينظر ،نظرت أليكس إلى جونس وإبراهام متعجبة بسؤال طرح نفسه فى عيونهم هل يعقل أن يكون ذلك العجوز امرأة؟!، كاد أن يقف ماك لكن جونس قبض على يده وطلب منه التريث قليلا ،لكن أعينهم جميعا لم تترك لها طرفه عين ،لاحظت ميلين ان هناك من يتأملها بشكل ملفت للنظر حاولت تذكر أن كان هناك موقف ما قد جمعها بهم من قبل عقلها الصدا لم يساعدها على تذكرهم ،مرت بجوارهم فلاحظت أن أحدهم قد التف لينظر إليها ،فأدركت أن هناك أمر ما نبض بأعماقها القلق ،حملت نفسها تدور بين العربات مره أخرى تبيع العسلية ،ولكن طرأ على مسمعها كلمه مالوفه لم تسمعها منذ أمد طويل ،فعصرت عقلها لكنها لم تذكر معنى الكلمه فقررت المرور من جانبهم ،كانت تحاول إستراق السمع إليهم لكنهم كانوا يصمتون عند إقترابها ،وضعت بجوارهم قطعتين من الحلوى مثل بقيه الركاب ومضيت فى العربه وعقلها يفكر من هؤلاء ولما يحدقون بها هكذا ؟!،

ربما عقلها صنع جدار حمايه لروحها من أن تتذكر متى قابلت تلك الوجوه ،وجدتهم تركوا الحلوى بجوارهم، فأدركت أنهم لا يرغون بالشراء وربما ما صنعته بعقلها كان ضربا من الخيال لا أكثر ، همت لأخذها فوضع جونس يده عليها وقد سبقته يدها فتلامستا أيديهما قائلا

:آسف سأشتريها ،اخرج محفظته من جيبه وعيناه لا تفارق وجهها..مد يده بالنقود لكن فجأة تسمرت نظراتهما ببعضها، تعرفت على ملامحه التى تعلمها جيدا من بين ثنايا تجاعيد الزمن ،أدرك جونس أنها تعرفت عليه قائلا بالمغربي

: فينما كانشوف فيك أمولات الحلوى كنمسح من وجهك الغبرة كنشوف فيك عزيزتى ميلين ما كنتش عارف إن الله خلق الشبه دياك أميلين (كلما اراك يابائعه الحلوى انفض من وجهك الغبار حتى اجد فيك عزيزتى ميلين) ،لم أكن أعلم أن إله قد خلق مك شبيها يا ميلين بامغربى (لم أدرك أن الله قد خلق شبيها لك يا ميلين).

توقفت أوصالها حينما سمعته ،أخبرته نظراتها أنها فهمت ما قاله حتى أنه أدرك أنها حقا ميلين ، سقط النقود من يدها وهرولت هاربة كالتى تهرب من الموت وعقلها لا يستعب ما حدث ،تقطعت أنفاسها من الجرى وكذك الطريق فهذه العربه الأخيره بالقطار!، سالت نفسها أين سأتجه لأتفادى الحقيقة التى أهرب منها ؟!، توارت خلف أخر كرسى فى العربه بجسد تملاؤه رعشات الخوف من مواجهت الحقيقة ،تسائل نفسها هل ترجمت كلامه صحيح أم أنى أتخيل..مثل الحلم الذى أستعدت فيه ذكرياتى الدفينة ،لكن رائحة أزهار المغرب التى ملئت أنفاسى اليوم ربما لعبت بعقلى ليخيل لى أننى أسمع اللهجة المغربية وسمعت اسمى لأول مرة منذ أكثر من خمسين عاماً مضت ،ظللت تراقب باب العربة بانتظار أن يأتى من تتمنى أن لا تراه مجددا ،كلما ترقبت كما إزداد خوفها ورعبها ،فقررت أن تكون تلك هى النهاية فلا يمكن لها أن تترك جونس يراها بهذا الحال الرث ،فاقتربت من حافة القطار تستعد لتلقى نفسها منه قائلة لنفسها

:آن الأوان لتختفى ميلين من على وجه الأرض!، أغمضت عينها وهمت أن تلقى بنفسها فجأة إلتفت يدا حول خصرها وضمها إلى أحضانه قائلا ميلين!

سقطت العمامه من رأسها فكشف عن شعر ذهبى أصابه بعض الشيب إنسدل على ظهرها متعرج كالشعر الغجرى أخرج منديل ومسح وجهها من التراب ثم أزال الشارب الخفيف و الذقن البسيط الذى الصقته بوجهها ،تأملها بعينين دامعتين لا تصدقان ما يراه كالذى يتأمل معجزة الإلهية فى زمن أبتلى بفقد المعجزات ،عيناها تسأل جسدها هل هذا جسد عزيزتى ميلين هل تلك عيناها وشفتاها ،إقترب من وجهها وأشتم رائحتها قائلا :

مازال عبق ميلين يفوح منك.. صدق من قال يذب الورد ورائحته به لكنك لم تذبلين (بالمغربى)

لأ أفهم ما تقول ياسيدى ولا أعلم من هى ميلين ..التى تعمل هنا امرأة مصرية لا تفهم لغتك

لمس يدها المبتوره قائلا

: تلك الأنامل أتى أزالها الله مكنونه فى جنان الخالق ،أحنى رأسه ليقبلها لكنها سحبت ذراعها قائله

:لما أتيت إلى مصر ؟ ومن أنت؟!

أدرك أنها تعلم من هو لكنها لا تريد الإعتراف فهو لا يظن أن ميلين قد فقدت ذاكرتها ولا تدرى من هو حقا ،قال لعلك تدعين يا ميلين أنك لا تذكرين من أنا لكن لا بأس سأعيد معك شبابى وحكايتى التى مازلت أحياها ،لقد بحثت عنك فى مغارب الأرض ومشارقها لكنى لم أجدك حتى ساقتنى قدماى إلى مصر إلى المكان الذى مات فيه الحلم وضاع فيه الحبيب ورحلت فيه زهرة شبابك لكنى وجدت أنها إحتفظت بكيانى لحين أتى ،لا بأس أن تنسى اسمى وتنسى موطنى فأنا موطنك وأنا مسكنك فسياط الفراق أذاق قلبى الجحيم.

أبعدت يده عن خصرها وألتقطت عمامتها حاولت جاهدة بذراعها ان تربط شعرها وتعيده مرة أخرى كما كان وهى تمضى بعيدا عن جونس فجأة .

سقطت من يدها عمامتها وتصلبت أوصالها وحبست أنفاسها بصدرها وهى تنظر بعينين شاخصتين كادتا تخرج من محجريهما إلى ماك الذى ظهر امامها مضطرب الأنفاس متثاقل الخطوات وقد سالت الدموع من عينيه كاد أن يتحدث لكن بكائه حجب الكلمات بصدره ،إقتربت ميلين منه بعينين دامعتين قائله :

لا يمكن لهذا أن يحدث..أنت ذلك الغريب؟! ،لا يمكن أن ما أراه خيال!!،لا أعتقد أن عقلى قد تشتت فى التفريق بين الحلم والحقيقه ! لابد أننى مازلت حبيسه ذلك الحلم. !

وقف إبراهام وأليكس مصدومين وبنفس واحد قالا

:مراً لا يصدق!

بينما إقتربت "ميلين" من ماك أكثر ثم مدت يدها تتحسس وجهه ومنكبيه لتتأكد أن ما تراه حقيقة وأنها حقا قد تحررت من ذلك الحلم الذى أشبه بالحقيقة لمسته قائلة

:كيف؟!..كيف تجسدت وكنت مجرد شبح فى حلمى؟!، كيف للأحلام أن تتجسد .. لابد أننى أهزى أو أحلم .أجل ..أجل ..لابد أننى محبوسة فى حلمى ولابد لى أن أستيقظ ،بحثت ميلين حولها عن شئ لتوقظ نفسها من ذلك الحلم لكن فجأة .

أخرج ماك من جيبه صورتها ومد يده بها إليها ،نظرت إليها بعينان تسكبان أبحر من الدموع ثم نظرت إليه غير مصدقة مدت يدها بجيبها فأخرجت صوره ياسين وجمعت الصورتين معا فجأه إنهارت باكية على ركبتيها كان صدرها يتآكل من الألم المكبوت ثم ركع ماك أمامها عاجزا عن كبح دموعه ،عن نشوة انتصاره أنه كان على حق وأن ما حدث لم تكن خرافات عقل مريض ،إقترب من ميلين مسنداً رأسها على كتفه ،وقف جونس عاجزه عن الكلام يشعر بذنب الحياة البائسة التى عاشت فيها ميلين بسببه ،بينما وضعت أليكس يدها على فمها تكبت صوت بكائها وقد إنهارت شكوكها وآمنت بأعماق قلبها أن المعجزات مازالت سائرة بين البشر وأن ما ظنته خيال وتخاريف عقل كان حقيقة !

وأن قلبها لم يعرف طعم الإيمان الحق إلا برؤية تلك المعجزة أمامها ،بينما إبراهام كان بالكاد إنسدلت دمعتين من عينيه متظاهرا بالصلابه بينما كان صدره المضطرب الأنفاس يعلن حزنه وكبحه لجماحه.

لكل منا معجزة فى حياته بعضها أتى وبعضها قادم لكن على الانسان أن يستعد لها فأما أن يؤمن بها ويحققها أو ينكرها ويخسرها للأبد ،لم أدرك حقا أن هناك معجزة كتلك قد تحدث من مشارق الأرض إلى مغاربها ،حيث تغدوا روحا تبحث عن ذويها عن حريتها وسلامها تبحث عن من يؤمن بها ،كنت أظن أن ما يطرأ على العقل من أحلام ماهى إلا أضغاث حتى تلك اللحظة التى آمنت فيها أن الأحلام ماهى إلا إشارة من الخالق لنستعد لما هو قادم ...آمنت بالمعجزات فى ديانتى الكاثوليكيه لكن لم أدركها بعينى يوما إلا فى تلك اللحظة التى رأيت فيها "السيد جونس وماك" يتحدثان اللغة العربية ثم فى النهاية ميلين تلك الجميلة التى أخفى الزمن ملامحها لكنه عجزه عن دفن روحها الجميلة ،وياسين الذى لا ندرى إن كان حقاً حياً أم قضى نحبه فى تلك المعركه ، عادت ميلين إلى أكناف والدتها بعودتها إلى المنزل ،كانت تستعيد فى كل ركن تلمسه ذكرى لها ،تحسست سريها المهرتل بمرور الزمن ببكاء مرير ،لكن سرعان ما هدأ ألمها عندما إنعزلت عنا بماك يتناجيان يقص عليها ما حدث فى رحلته مع ياسين كانت تستمع إليه بعينين شاخصتين تنهمر منهما الدمع لا تتوقف ،رأيت إنهيار تلك الحواجز بينهما منذ اللحظة الأولى التى التقيا فيها وجها لوجه كل منهم راى لدى لاخر جوهرته المفقوده وقصته التى لم تكتمل بعد،وبينما كان يقص عليها ماحدث كانت عيناه لا تغض النظر عنها يخشى أن ترمش عينيه فتختفى من أمامه كحلم عابر ،من يراهم يظن أنهم أم وأبنها التقيا بعد سنوات من الفراق ،ففارق العمر بينهما كبير ،حيث تجاوز ماك الخمسين ببضع سنوات بينما شارفت ميلين على السادسه والتسعون من العمر! لم يتوقع ماك أنها تبلغ ذلك العمر، فقد ابتسم ضاحكا كلما تذكر إنه كان ينادى ياسين ب الشاب العربى ويعامله كشاب صغير وأوقات كإبنه بينما هو يبلغ من السن ما بلغت ميلين !،لم يجرؤا أحد على ان يقطع خلوتهما التى استمرت أكثر من عشر ساعات بينما جلس السيد جونس متالم بالندم الذى ياكل قلبه وهو يحمل بين يديه عمامه ميلين مؤنبا نفسه انه السبب فيما وصلت اليه إلى الأن من الحضيض وابراهام الذى يراقب ضعفه فى حزن لكنه لا يملك من الأمر سوى أن يتركه ليفض عن نفسه ذلك الألم الذى أثقل قلبه وروحه .

بينما كنت أجلس اتصفح يوميات ياسين بين يدى والتى إحتفظت بها ميلين طوال حياتها لكن لم أفهم منها شيء فقد كتبت باللغة العربية التى لا أتقنها لاحظت تلك الرسومات التى أفصحت كم كان ياسين موهوب فى الرسم رأيت صورة لطائر رائع الجمال كتب تحتها توقيع ياسين واسم الطائر الذى طلبت من إبراهام قراءته لى فأخبرنى أنه (طائر التمير ويلقب بطائر الشمس) ثم صوره للمسجد الاقصى ولعده جبال ثم منازل تبدوا أنها لمنزله ثم صوره لفتاه صغيره تدرج الرسم بملامحها حتى غدت شابه كبيره تشبه ميلين إلى حد كبير ثم رسم وجهها الشبابى وبجواره صوره للمسجد الأقصى وبعدها عدت أوراق خالية من الكتابة ،كدت أن أغلق اليوميات لولا أن لاحظت شيئاً مكتوباً فى آخر صفحه باللغة الفرنسية تقول

(لا أندم على شيء فقدته فى حياتى فقد فزت بك وبقلبك فى النهايه وإلى الأبد)

نظرت إلى ميلين عندما قرأت تلك الكلمات ،إستشعرت ذلك الحب المكنون بداخلها لياسين فتحسست خاتم زفافى آسفه على تلك اللحظات التى لم اثق فيها بماك .

أغلقت اليوميات عندما رأيتهم قادمين يسندها ماك بيديه كابن يسند امه ،إقتربت من جونس متحسسه وجهه قائلة

:كم إشتاق إليك يا جونس ..لم أحلم يوما أن أراك وقد صرت هزيلا مثلى ،إبتسم جونس باكيا فربتت على كتفه ،فجأة قطع حديثهما إبراهام طالبا من ميلين أن تدخل إحدى الغرف التى أعدها لها خصيصا بصحبه سيدتين سيعدونها لتتخلص من ثيابها الباليه وهيئتها الرجوليه ،دخلت ميلين بصحبه السيدتين وعندما خرجت رأيت فيها امرأة لا تليق ان تكون الا فى القصور الملكيه ظهر جمالها وأناقتها التى أذهلت الجميع لم يستطع جونس إخفاء شغفه بها رغم ما مر من سنوات فقد وقف متأملا لها قائلا

:أنت كالملائكة لا ينطفئ نورك أبداً!

طلبت ميلين من جونس أن تذهب إلى إيلياميلين ،لم يفهم جونس ما تقصد فإبتسم ماك مفسرا قولها أنها ترغب فى أن تذهب إلى فلسطين ،فقد أطلقت عليها إيلياميلين ،عبر جونس عن خوفه من ذهابها الى هناك فالأوضاع غير مستقره ولم تعد فلسطين كما كانت فى سابق عهدها لكن عجز أمام إلحاح ميلين وماك على الذهاب إلى هناك و إستطاع ان يدبر لنا جميعا وسيلة للسفر إلى فلسطين ولكننا ذهبنا إلى تل أبيب أولا ،شعرت بكم الغبطة فى قلب ميلين لإسرئيل بل تمنت ان تغلق عينيها وتفتحها فتراها قد ازيلت بما عليها! ، ارادت ان تذهب الى المسجد الاقصى اولا وعندما ذهبنا اليه رايت فيه وقار وعظمه مقدسه لم أشعر بها فى الكنيسه ،وجدت تمسك الفلسطينيين بها كالمتمسكين ب باب من أبواب الجنه وفقدانهم له كفتح باب من ابواب جهنم ،رأيت عيون ماك المندهشه تتأمل كل شبر فى فلسطين كالذى تربى على أرضها ونشأ فيها لكننى أدركت أنه كان يسترجع كل لحظه قضاها مع ياسين على هذه الأرض فجأة إقترب منى هامساً

:لقد اشتقت إلى هذا المكان كثيرا ، إشتقت إلى ياسين وإلى أغصان الزيتون وأمطار الخريف وتلك الأغنيه التى تغني بها الجميع أثناء جمع محصول الزيتون ،ثم أوقفنى سؤاله قائلا

:هل تعتقدين أن ياسين مازال على قيد الحياه كميلين ..ربما فقد الذاكرة بعد أصابته بالمعركه وربما كان مريضا فى مكان ما أو مازال يبحث عن ميلين..أجل بالتأكيد مازال على قيد الحياه.

لم أرغب فى أن أناقشه فى ذلك الموضوع فقد تثاقل عليه المرض حتى بدا ذلك على يده المرتعشه وعينيه الحمراوتين ووجهه الشاحب بل قمت بإحتضانه عاجزة عن إيجاد جواب لسؤاله ،سرعان ما طلبت ميلين أن تذهب إلى حيفا حيث المكان الذى فقدت فيه ياسين ،لم يتبق من المكان الذى جمعهم سوى أطلال ،ركعت ميلين إلى الأرض حيث فقدت ياسين وظلت تقبلها حتى التصق جبينها بالأرض وامتلأ بالتراب وارتوت الأرض بدموع الألم الذى يتوهج بقلبها دون أن يهدأ أو يتوقف ثم قالت :

ياسين لو كنت أعلم أن نهايتك ستكون هكذا لضممتك إلى صدرى للأبد ،ثم رفعت رأسها قائله

:المكان الذى كان فيه اللقاء أصبح فيه الفراق ، لكننى لن أفترق عنك أبدا، وقف الجميع يجفف دموعه بينما ذهب ماك إلى مكان بالجوار يتأمل الاجواء ثم قبض حفنة من التراب بيديه وضعها بالقرب من أنفاسه كالذى يستنشق منها الحياه قائلا

:لقد جئت إلى موطنك لكن.. أين أنت يافتى؟، لن أكف عن مناداتك بالفتى حتى لو كنت بمثابة الحفيد لك !،أستطيع أن أشم رائحه أغضان الزيتون والقداسة التى شعرت بها من قبل ،فجأة همس إبراهام الى جونس بشيء ما فاقترب نحو ميلين ثم ربت على كتفها قائلا

:أنت لم تفقدى كل شيء ..لدى مفأجاه لك،وقفت ميلين تنظر إلى ما يشير إليه جونس كانت المفاجأة التى أدهشت الجميع حيث تسمرت مكانى بينما ميلين وقفت متصلبت الأوصال شاخصة العينين إلى حيث أشار جونس ،نظرت إلى ماك الذى لاحظ من بعيد ذلك الرجل القادم نحونا فوقف جاحظ العينين تكاد تخرج عينيه من محجريهما ،مضطرب الأنفاس كمرجل متقد بصدره حتى شعرت أنه على وشك الإنهيار فأسرعت اليه أساله والشك يملأ قلبى بالإجابه

:من هذا الرجل؟ فأنا لا أصدق ما تراه عينى ،فأخبرنى قائلا

: انه شخص ان رأيته تجد فيه روح أمه وجسد أبيه ،ولولا أننى أعلم أن ياسين سيصبح كهلا ان كان على قيد الحياه لأخبرتك أنه ياسين ،أسندت ماك متجهان نحوه ، فقال جونس بصوت أسمع الجميع

:لن أخبركم شيء سوى اسمه فأظن أنكم تعلمون من ملامحه من هو..أنه يوسف ..يوسف ياسين..

كان رجلا يافعا قوى البنيان تدب بجسده حيويه الشباب لا تستطيع تحديد عمره الحقيقى أ

ان كان شابا أم رجلاً كبيرا إلا من بضع شعرات بيضاء تداعب مقدمة رأسه فتفصح أنه متقدم فى العمر ،إن وضع بجوار أبيه لأختلط الأمر على من يراهم اتوأمين أم أب وابن ؟ !

ما أن رأته ميلين حتى عجزت قدماها عن النهوض إليه فالقى يوسف بنفسه بين ذراعيها بينما تشبثت به كالتى تتشبث بأيامها التى انقضت، بالأمل الذى أنار عتمتها، وبالروح التى فقدتها طوال حياتها وظنت انها فقدتها إلى الابد، حتى أنها لم تسأل جونس عند اللقاء عن طفلها إن كان حيا أم لا فقد تأكدت بمرور السنوات التى كانت تبحث فيها عنه أنه قضى نحبه مثل أبيه فلا يمكن لأبيها أن يتركه حيا ، بينما كان يوسف عاجزا عن الكلام كان حديثه البكاء المرير وقبلاته التى حرم منها طوال حياته لأمه ،صوره يتجسد فيها ذلك السلام التى حرمت منها طوال حياتها تماما كفلسطين التى حرمت من سلامها وأمانها وحريتها ومازالت بإنتظار ذلك الابن الذى يدب ف جذورها الحياة والسلام من جديد ويقتلع الإحتلال من جذوره لتنطلق روح إيليا ميلين حرة كطائر الشمس المنطلق تحت أشعه الشمس دون قيد أو شرط دون حدود أو جدران عازلة دون بكاء أطفال وصرخات امهات دون أكفان تسابق بعضها البعض لتتوارى تحت التراب دون قهر الرجال وهدم المقدسات دون الصراخ مناشدين العالم والعرب طالبين النجده ولا يجدوا سوى أذن صماء والسن خرساء لا تفعل شيء سوى مد يدها بمعونات لا تشبع أرواحهم الحره ولا أصواتهم التى لا تستكين عن الصراخ تطالب بالحرية ولا تحقن دمائهم

الطاهرة ولا تبرد تلك النيران الموقد بقلبهم من خزى العرب اكثر من إفتراء الإحتلال بهم !
،ذاقت فلسطين من الظلم ما ذاقه العالم وذاقت من الخزى ما ذاقه يوسف من أخوته وذاقت من الظلم ما ذاقه ذئب يوسف واطفال عهد موسى الذين قتلوا بلا ذنب ، لكنه شعب ألقى بنفسه درعا ليحمى الارض كما ألقت أم موسى ابنها فى اليم ،مؤمنين أن الله لن ينحر رقابهم بل سيقوى شوكتهم فى عرين أعدائهم حتى يقضون عليه ،ان ما يمرون به هى سنوات عجاف ثم سياتى بعدها سنوات يحصدون فيها أرواح أعدائهم من اليهود والعرب الذين ألقوا بهم فى بئر الخزى وسيستعيدون مجدهم وأنفسهم من جديد ،ردت ماك قائلا

:لم تكن ميلين النبته التى كادت أن تقتلع من جذورها فى العاصفه بل يوسف أيضا ،لقد كدنا أن نفقد كل شىء لو أننا تأخرنا قليلا ..كان ياسين يحثنى أن أسرع قبل أن ينقطع جونس عن المجىء إلى مصر إلى الأبد ،هززت رأسى قائلة

:أجل ..لقد إجتمع شمل العائلة الآن لقد أتممت رسالتك يا عزيزى

نظر ماك إلى متاملا وجهى قائلا

:مازال هناك جزء مفقود منها يا عزيزتى أليكس..

لم أفم ما الذى يقصده بل عدت لأشاهد تلك المعجزة التى تجسدت أمامنا ،قررت ميلين أن تمكث بفلسطين لكن أوضاع الدولة وخوف يوسف أن يحرم منها قبل أن يشبع من حضنها خلال السنوات الباقيه لها جعلتها تتراجع عن قرارها فمكثت بمصر بمنزل والدتها بعدما كتبت وصيتها أن تدفن بفلسطين وأن يصلى على جثمانها فى المسجد الأقصى ،ونتيجة إنهيار الحالة الصحية لماك قررت أن أعود به إلى بريطانيا بأسرع وقت بعدما ودعنا ميلين التى أهدته صورتها الوحيدة التى تجمعها بياسين بعدما تم إصلاحها ،قدم إليها ماك الغليون الذى إستخدمه ياسين فى تجاربه عند وداعنا فى المطار ،لكنها إعادته إليه مبتسمة مشيرة إلى ذراعها قائلة

:ما يطمئن قلبى أن هناك جزء منى بجواره كما أن هنا جزء منه بجوارى "تنظر الى يوسف"

إحتفظ ماك بالصور والغليون، وبعد عودتنا لبريطانيا سرعان ما إنهارت صحته يوما بعد يوما وهو يمكث بالليالى بغرفه المكتب يكتب روايته ،كلما هممت لاطلب منه أن ينال قسطاً من الراحة لبعض الوقت أتذكر أنه لم يعد يمتلك من الوقت ما يكفى ليتوقف عن تحقيق حلمه ،كنت أرى ألم يتخلل جسده أكثر قوة من ألم المرض وهو ألم الإشتياق ،فقد إشتاق إلى ياسين كثيرا إلى الحد الذى كلما غلب عينيه النوم من الإرهاق ينتفض صارخا باسمه فتمتلىء الأجواء بمناداته ،مضت الأيام ثقيلة مؤلمة ترهق الأنفاس ،بدأ نور حياتى ينطفىء ببطىء كلما إنهارت صحته حتى عجزت قدماه عن حمل جسده فاتخذ من الكرسى المتحرك بديلا لهما ،انتهى من كتابه روايته وسرعان ما أخذتها دار النشر لنشرها وترجمتها لعديد من اللغات والتى انتشرت بشكل كبير وأصبحت فى قائمه الروايات الأكثر مبيعا ،ثم عقد حفلاً كبيراً إحتفالا بنجاحها لكن ماك فعلا شيئاً عجيباً كلما طلب منه أحد القراء فى الحفل توقيعه على الراوية ،فقد كان يوقع بجوار اسمه كاتباً إيلياء ،كان القراء يتعجبون متسائلين عن معنى الاسم فكان يجيبهم قائلا

:هى الأرض الطاهرة التى دنست بآثام بريطانيا وخذى العرب ،وهى الأرض التى بعث من رحمها روحا أشتاق إليها كثيرا إلى حد الموت ،وفى وسط الحفل إنهار ماك فجأة ونقل إلى المستشفى غائبا عن الوعى أكد الطبيب أن الوقت المتبقى له أقل من ثمانية وأربعين ساعة ،كنت أحاول التماسك فإنتصاره فى تحقيقه حلمه كان يهدأ نيران فقدانه فلطالما اعتبرته عالمى الوحيد والحلم الوحيد الذى سعيت لتحقيقه ،ما أن فتح ماك عينيه حتى طلب منى أن يعود إلى المنزل فهو يرغب فى أن يموت بين تلك الجدران التى عاش بينها ياسين وعاش معه معجزته ،أدركت أنها أمنيته الأخيرة فلم أعترض وسرعان ما أخذته إلى المنزل الذى ما أن دخله حتى إتجه إلى غرفة المكتب وطلب منى أن اتركه هنا ليقضى بها ما تبقى من وقته ،تركته يختال بنفسه وبذكرياته ،تأمل ماك كل ركن بالغرفة كان يقف فيه ياسين ثم أشعل الغليون واستنشق دخانه ثم زفره فى الجو كما كان يفعل ياسين لبدء تجاربه ثم تمدد على الأريكه وهو يحتضن الغليون ،فجأة سمع صوتاً بجواره ظن أنها أليكس ففتح عينيه ليتراجها أن تتركه لبعض الوقت لكن فجأة رأى ياسين يقف امامه ،مبتسماً جميل الهيئة ليس كما رآه آخر مرة ملىء بالغبار والدماء ، ابتسم ياسين قائلا

:مرحبا سيد ماك..اقترب ماك نحوه وهو ينظر حوله متسائلا أين هو؟! ، لكن لا يبدوا للمكان ملامح واضحه ..لا شىء واضح على الاطلاق عدا ياسين ،اقترب منه وفى عينيه دموع الإشتياق إليه قائلا:

لقد رأيت ميلين ويوسف.. ابنك يشبهك كثيرا ،لقد انقذنا النبته يا فتى!

هزَّ ياسين رأسه مبتسماً ممتنا لما فعله ،فجأة إحتضنه ماك بقوة باكياً قائلا:

لقد إشتقت إليك يا فتى ..لا يهمنى ما تبلغ من العمر فأنا أراك شاباً صغيراً إلى الآن ..لقد إشتقت إليك كثيرا أين إختفيت ولماذا؟

نظر إليه ياسين قائلا

:لن أختفى بعد اليوم ..سنظل معا إلى الأبد ..تعالى معى

:إلى أين؟!،لم ينطق ياسين بكلمه فنظر ماك حوله قائلا

:أليكس !..وبصوت حزين أكمل قائلا : آسف يا عزيزتى سنلتقى يوما ما ..فالتنعمى بحياة رغدة وسأكون بانتظارك ...نظر إلى ياسين الذى إتسعت إبتسامته وسعادته بصحبه ماك الذى احتضنه ثم مضيا سويا.

رساله

عزيزتى ميلين لا أدرى ما ذلك القدر الذى يربطنى بك أو يربطك بى ،لكننى رأيتك فى حلمى بشعرك الذهبى القصير وقرطاك الامعين تحتضنينى، لقد رأيت روحى تتمثل فى جسد ذلك الزوج الذى اهيمتى فيه عشقا والغريب أننى بادلتك ذلك العشق ،لا أدرى لماذا؟ أكنت سجينه جسد زوجك وروحه أم أننى كنت أنظر إليك بعينيه ،مازلت أشعر ببرودة أناملك فى كفى ولا أدرى كيف وهى كف زوجك وشعر قلبى بالخوف حين إقتحمتى باب المقهى تخبرينى إكتشافك لأمر المنظمة وشعرت بثقل فى قلبى حينما نظرت إلى نظرت وداع وكأن روحى كانت بقلب زوجك فشعرت بكل شيء شعر به وتعايشته كأنى هو وكأنه أنا! ،ثم أختفيت من جسده وأصبحت كطائر يطير حولك بكل مكان ،فرأيتك تركبين حنطوراً مهرولة تبحثين عن طفلك الذى لم تعرفى جنسه ولم تراه عينك بعد ولادته ،ثم إنتفضت صارخة من الألم الذى أكل روحى عندما قطعت يدك.. لا أعلم الرابط بينى وبينك حتى أنى علمت اسمك قبل أنت تنطقين به وحفظته عن ظهر قلب رغم أننى لم أسمع قط باسم يشبه اسمك قبل اللحظة التى رأيتك فيها.. عزيزتى إن كنت روح من الله حقه فقد أديت أمانتك وإن كنت من هلاوس عقلى فأنا لا أؤمن بأضغاث الأحلام ،فالأضغاث حقيقة مرسلة من الله إلينا ،ولا أدرى إن كنت قد أرسلك الله لى أم الى ياسين أم لكليكما ،أعذرينى فأنت لم تخبرينى باسمه فكنت اسمعك تتلذذين بدعوته زوجى فاخترت له ذلك الاسم ولكنى على يقين أن الله أرسلك لى من أجلك ومن أجلى ،وإن قصرت فى توصيل رسالتك فاعذرينى فما زلت فى بداية مشوارى ككاتبه لكننى أعشقك عشق الروح للجسد ولا أستطيع نسيانك أبداً وإلى الآن مازلت فى وجدانى وعقلى وقلبى وستظلين الروح الصديقة والنقية التى قابلتها بحياتى ..تحياتى

نجلاء فتحى بدر

٢٠١٩